مواقف من حياة النساء



عماد حسن الشافعي

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر

مواقف من حياة النساء

عماد حسن الشافعى



الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

إهــــداء

إلى أمى الكريمة، وأبى الكريم. .

« رب اجعلنى بارًا بهما، ولا تجعلنى جبارًا شقيًا» .

عماد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

فى الصفحات التالية عزيزى القارئ بعض الحكايات والمواقف المتعلقة بالقلب وبالمشاعر الإنسانية ـ أعنى عاطفة الحب التى بين المرأة والرجل، تلك النزعة الإنسانية التى غالبًا لا يكون للمرء إرادةٌ فيها أو سلطانٌ عليها. إذ القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

لذا كان نبينا الكريم يكثر من الدعاء: «**يامقلب القلوب ثبِّت قلبى على دينك**»، وكان نبينا الكريم ﷺ مع عدله التام، وورعه الشديد يخص السيدة عائشة رضى الله عنها بنصيب أوفر من الحب، وكان يردد:

« **اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تؤاخذنى فيما لا أملك** » ـ أى القلب ـ!

هذه إذن حكايات ومواقف حب، مختارة من تراثنا الأدبى العربى، وهى قصص عن المرأة، لا تدعو إلى المجون ولا إلى العبث بقدر ما تدعو إلى التمسك بالعفة والفضيلة ونقاء السريرة. فطوبى لمن عصمه الله تعالى من الوقوع فى حُبٍّ المعصية، وطوبى لمن حجز نفسه عن محارم الله. ونسأل الله العافية.

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾.

صدق الله العظيم

الحب والملكوت

كان «لبرهام جور» ابن مدلل، وكان قد رشحه للملك من بعده، فنشأ الفتى ناقص الهمة، ساقط المروءة، خامل النفس، سيئ الأدب؛ فغمَّه ذلك ووكل به المؤدبين والحكماء، وكان يسألهم عنه، فيحكون له ما يغُمه من سوء فهمه وقلة أدبه، إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً، فقال له المؤدب: قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما جعلنا فى يأسٍ من صلاح أمره وفلاحه.

قال: وما ذاك الذى حدث؟

قال المؤدب: إنه رأى ابنة فلان فعشقها حتى غلبت عليه، فهو لا يهذى إلا بها، ولا يتشاغل إلا بذكرها.

فقال برهام: الآن رجوت صلاحه! ثم دعا بأبى الجارية فقال له: إنى مُسرٌّ لك سراً، وأعلمه أن ابنه قد أحب ابنته، وأنه يريد أن ينكحها إياه. وأمره أن يأمرها بإطماعه فى نفسها، ومراسلته من غير أن يراها، أو تقع عينه عليها، فإذا استحكم حبه لها وطمعه فيها تجنت عليه وهجرته. فإن استعتبها، أعلمته أنها لا تصلح إلا لملك، ومن تكن همته همة ملك.

ففعل ذلك، وفعلت الجارية ما أمرها به أبوها، فلما انتهت إلى التجنى عليه، وعلم الفتى السبب الذى كرهته له، أخذ فى الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية؛ حتى أصبح ماهراً فى ذلك كله.

ورفع إلى أبيه أنه محتاج إلى مزيد من الدواب والآلات والملابس والندماء فسرّ الملك بذلك وأمر له به. ثم دعا الملك مؤدب ولده وقال له: إنه الآن فى حالٍ حسن، فتقدم إليه أن يرفع إلىّ أمرها وأن يسألنى أن أزوجه إياها. ففعل. فرفعَ الفتى ذلك إلى أبيه، فدعا بأبيها فزوجها إياه. فلما اجتمعا، قال الملك لابنه وهو يعظه: يا بنى لا يضع قدرها عندك مراسلتها إياك وهى ليست فى حبالك، فإنى أنا أمرتها بذلك. وهى بهذا أعظم الناس مِنَّةً عليك بما دعتك إليه من طلب المعرفة والحكمة، والتخلق بأخلاق الملوك؛ حتى بلغت الحد الذى تصلح معه للملك من

بعدى. فزدها يا بنى من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك».

ففعل الفتى ذلك، وعاش مسروراً بالجارية، وعاش أبوه مسروراً به وأحسن إلى أبيها، وأحسن جائزة المؤدب.

***

المرأة والفتى العابد

أخبر أحمد بن سعيد عن أبيه قال:

كان عندنا بالكوفة شاب يتعبد ملازماً لمسجد الجامع لايكاد يخلو منه، وكان حسن الوجه، حسن السمت، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال ذلك عليها.

فلما كان ذات يوم وقفت له على طريقه وهو يريد المسجد فقالت له:

يافتى اسمع منى كلمات أكلمك بها ثم اعمل ماشئت. فمضى ولم يكلمها. ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه، وهو يريد منزله فقالت له: يافتى اسمع منى كلمات أكلمك بها، فأطرق فقال: هذا موقف تُهْمةٍ وأنا أكره أن أكون للتُهْمَةِ موضعًا.

فقالت: والله ماوقفت موقفى هذا جهالة منى بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا منى، وجملة ما أكلمك به أن جوارحى كلها مشغولة بك. فالله الله فى أمرى وأمرك!

فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلى فلم يعقل كيف يصلى. فأخذ ورقة وكتب سطوراً ثم خرج من منزله فإذا بالمرأة واقفة فى موضعها، فألقى إليها الورقة ورجع إلى منزله مسرعاً.

وكان فى الورقة: بسم الله الرحمن الرحيم. اعلمى أيتها المرأة أن الله تبارك وتعالى إذا عُصى حَلِمَ، فإذا عاود العبد المعصية ستر، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله عز وجل لنفسه غضبةً تضيق منها السموات والأرضون والجبال والشجر والدواب. فمن ذا الذى يطيق غضبه فإن كان ماذكرتِ باطلاً فإنى أذكرِك يوماً

تكون السماء فيه كالمهل، وتصير الجبال كالعهن وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم. وإنى والله قد ضعفتُ عن إصلاح نفسى فكيف بصلاح غيرى؟!

وإن كان ماذكرتِ حقاً فإنى أدلك على طبيب هذا، ذلك الله رب العالمين فاقصديه على صدق المسألة، فإنى متشاغل عنك بقوله عز وجل: ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين. ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق**﴾ فأين المهرب من هذه الآية؟!

ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على طريقه. فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله لئلا يراها. فقالت:

« يافتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا أبداً إلا بين يدى الله عز وجل» . وبكت بكاءً كثيراً. ثم قالت:

أسأل الله عز وجل الذى بيده مفاتيح قلبك أن يُسهِّل ما قد عسر من أمرك. ثم تبعته فقالت: امنن علىَّ بموعظةٍ أحملها عنك، وأوصنى بوصية أعمل بها.

فقال لها الفتى: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك، وأذكرك قوله عز وجل: ﴿**وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار**﴾ فأطرقت وبكت، ثم لزمت بيتها وأخذت بالعبادة فكانت إذا أجهدها الأمر تدعو الله، وتصلى وكان إذا جن عليها الليل قامت إلى محرابها فإذا صلت قالت:

ياوارث الأرض هب لى منك مغفرة   وحُلَّ عنى هوى ذا الهاجر الدانى
وانظر إلى خُلَّتى يامُشْتَكَى حزنـى   بنظرة منك تجلو كل أحزانـى

فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمداً وكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكى عليها فيقال له:

ممّ بكاوك وأنت قد أيستها؟!

فيقول: إنى ذقت طعمها منى فى أول أمرها وجعلت قطعها ذخيرة لى عند الله عز وجل، وإنى لأستحى من الله عز وجل أن أسترد ذخيرة ذخرتها عنده.

كان ذلك أحب إليّ من حجي

حدّث إبراهيم بن ميمون قال:

حججت فى أيام الرشيد، فبينا أنا بمكة أجول فى سككها فإذا أنا بسوداء قائمة ساهية، فانكرت حالها، ووقفت أنظر إليها، فمكثتْ كذلك ساعة ثم قالت:

أعمـرو عـلام تجـنبـتـنى ... أخـذت فـؤادى فـعـذّبتنـى

فلو كنت ياعمرو خبّرتنى ... أخذت حذارى فمـــا نلتنى

قال:

فدنوت منها فقلت: ياهذه من عمرو؟

فارتاعت من قولى وقالت: زوجى!

فقلت: وما شأنه؟

قالت: أخبرنى أنه يهوانى، ومازال يدس إلىّ ويتبعنى فى كل طريق ويشكو شدة وجده حتى تزوجنى، فلبث معى قليلاً - وكان له عندى من الحب مثل الذى كان لى عنده، ثم مضى إلى جدة وتركنى.

قلت: صفيه لى.

فقالت: أحسن من تراه، وهو أسمر حلو ظريف.

قلت: فخبرينى.. أتحبين أن أجمع بينكما؟

فقالت: فكيف لى بذلك وظنتنى أهزل بها.

قال: فركبت راحلتى وذهبت إلى جدة، ووقفت فى المرقى أنظر إلى من يعمل فى السفن وأنادى: ياعمرو.. ياعمرو.

فإذا به خارج من سفينة، فعرفته بالصفة التى روتها المرأة، فقلت - أعمرو علام تجنبتنى!.. وأسمعته الأبيات من الشعر.

فقال: هيه هيه. ثم أطرق هنيهة.

فقلت له: ألا ترجع؟

فقال: بأبى أنت ومن لى بذلك؟.. ذلك والله أحب الأشياء إلىَّ، ولكن منعنى كما ترى طلب المعاش.

قلت: كم يكفيك كل سنة؟

قال: ثلاثمائة درهم.

فأعطيته ثلاثة آلاف درهم وقلت: هذه لعشر سنين، ورددته إليها وكان ذلك أحبَّ إلىَّ من حجى!

***

معاوية والأعرابى الحزين

حكى هشام بن عروة قال:

دخل فتى من بنى عذرة يوماً على معاوية بن أبى سفيان، فلما دنا منه قال: أطال الله بقاء أمير المؤمنين، اننى رجل من بنى عذرة تزوجت ابنة عم لى، وكان عندى قطعان من الإبل وبعض الشياه، فأنفقت ذلك عليها. فلما أصابتنى نائبة الزمان وحادثات الدهر رغب عنى أبوها، فكرهت مخالفة أبيها. فأتيت عاملك ابن أم الحكم فذكرت ذلك له، وبلغه جمالها فأعطى أباها عشرة آلاف درهم وتزوجها. هذا بعد أن أخذنى فحبسنى وضيقّ علىّ، فلما أصابنى مسّ الحديد وألم العذاب طلقتها وتزوجها هو؛ وقد أتيتك يا أمير المؤمنين، فهل من فرج، ثم بكى وأنشد شعراً.

فرق له معاوية وكتب إلى ابن أم الحكم كتاباً غليظاً.

فلما ورد كتاب معاوية على ابن أم الحكم وكان فى آخره:

طلِّق سُعادَ وفارقها بمجتمــــع ... وأشهد على ذلك نصراً وابن طيبانِ

فما سمعتُ كما بُلغّتُ من عجبٍ ... ولا فِعالك حقاً فعــل إنســانِ

تنفس الصعداء، وقال:

وددت أن أمير المؤمنين خلىّ بينى وبينها سنة ثم عرضنى على السيف فلما أزعجه الوفد طلقها، ثم قال: اخرجى ياسعاد. فخرجت وهى ذات هيبة وجمال.

فلما رآها القوم قالوا:

ماتصلح هذه إلا لأمير المؤمنين لا لأعرابى! وكتب كتاباً إلى معاوية.

فلما ورد الكتاب على معاوية قال إن كانت أعطيت حسن النغمة مع هذه الصفة فهى أكمل البرية، فاستنطقها فإذا هى أحسن الناس كلاماً.

فقال: يا أعرابى.. هل من سلوّ عنها بأفضل الرغبة.

قال الأعرابى: نعم إذا فرقت بين رأسى وجسدى فغضب معاوية، ثم قال لها: اختارى إن شئت أنا، وإن شئت ابن أم الحكم، وإن شئت الأعرابى.

فاختارت الأعرابى. فقال معاوية: خذها لابارك الله لك فيهاَ!

فأنشأ الأعرابى يقول:

خلّوا عن الطريق للأعرابى　　　إن لم تَرِقُّوا ويَحكَمُ لما بى

فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم وناقة ووطاِء، وأمر بها فأدخلت أحد قصوره حتى انقضت عدتها من ابن أم الحكم. ثم أمر بدفعها إلى الأعرابى:

***

تاب عن الخمر بسبب آية من القرآن

عن الحسن بن خضر قال: أخبرنى رجل من أهل بغداد عن أبى هاشم قال:

أردت البصرة فجئت إلى سفينة راسية أكتريها وفيها رجل ومعه جارية. فقال الرجل: ليس ههنا موضع. فسألته الجارية أن يحملنى فحملنى. فلما سرنا، دعا الرجل بالغداء فوضع. فقال انزلوا بذلك المسكين ليتغدى، فأنزلت على أننى مسكين. فلما أكلنا قال: ياجارية هاتى شرابك، فشرب وأمرها أن تسقينى، فقلت: رحمك الله، إن للضيف حقاً وهذا يؤذينى. فتركنى.

فلما دب فيه النبيذ قال: ياجارية هاتى العود وهاتى ماعندك. فأخذت العود غنت.

وكنـــا كغصنى بانة ليس واحد　　　يزول على الحالات عن رأى واحد

تبـدّل بـى خلاً فخاللت غيـره وخـلَّيتُـه لمـا أراد تـبـاعـدى

ألا قبَّح الرحمن كل مُمـاذِقٍ يكون أخاً فى الخَفْضِ لا فى الشدائدِ

ثم التفت إلىّ فقال: أتُحسن مثل هذا؟

فقلت: أحسن خيراً منه. فقرأت: ﴿ **إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت**﴾ فجعل يبكى..

فلما انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿ **وإذا الصحف نشرت**﴾ قال: ياجارية اذهبى فأنت حرة لوجه الله عز وجل وألقى مامعه من الشراب فى الماء وكسر العود. ثم دنا إلىّ فعانقنى وقال:

يا أخى أترى الله يقبل توبتى.

فقلت: إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

قال: فآخيته بعد ذلك أربعين سنة حتى مات قبلى. فرأيته فى المنام، فقلت: إلام صرت بعدى؟

فقال: إلى الجنة.

فقلت: ياأخى بم صرت إلى الجنة؟

قال: بقراءتك علىّ: ﴿ **إذا الصحف نشرت**﴾.

***

ولمن خاف مقام ربه جنتان

أخبر يحيى بن أيوب: أن فتى كان يعجب به عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال عمر: إن هذا الفتى ليعجبنى.. وانه انصرف ليلة من صلاة العشاء فمثلت له امرأة بين يديه فعرضت له بنفسها، ففتن بها، ومضت فاتبعها حتى وقفت على بابها. فلما وقف بالباب أفاق، وتذكر الآية: ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾.

فخرّ مغشياً عليه، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالميت، فلم تزل هى وجارية لها

تتعاونان عليه حتى ألقوه على باب داره.

وكان لهذا الفتى أب شيخ كبير يقعد فى انتظاره كل ليلة.. فخرج العجوز فإذا بابنه ملقىً على باب الدار. فلما أفاق سأله أبوه: ما الذى أصابك يابنى؟

قال: يا أبت لا تسألنى.

فلم يزل به حتى أخبره، وتلا الآية، وشهق شهقة خرجت معها نفسه، فدفن فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال: ألا آذنتمونى بموته. فذهب حتى وقف على قبره، فنادى: يافلان.. ولمن خاف مقام ربه جنتان.

فأجابه الفتى من داخل القبر: قد أعطانيهما ربى ياعمر!

***

الطفل والمرأة وذكاء أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب رضى الله عنه)

عن عبد الله بن صالح قال :حدثنى الليث قال:

وجد عمر بن الخطاب رضى الله عنه قتيلاً ملقى على قارعة الطريق، فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يعرف له قاتل. فشق ذلك عليه وقال: اللهم أظفرنى بقاتله.

حتى إذا رأس الحول ـ أى بعد سنة ـ وجد مولودًا ملقى بموضع القتيل فأتى به عمر رحمة الله عليه فقال: ظفرت بدم المقتول إن شاء الله. ودفع الغلام إلى امرأة وقال لها: قومى بشأنه وخذى منا نفقته وانظرى من يأخذه منك، فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها فأعلمينى بمكانها.

فلما شب الصبى، جاءت جارية فقالت للمرأة: إن سيدتى بعثتنى إليك لتبعثى بالصبى لتراه وترده إليك. قالت: نعم اذهبى به إليها وأنا معك، فذهبت بالصبى والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها فلما رأته أخذته فقبلته وضمته إليها، وإذا هى بنت شيخ من الأنصار من أصحاب النبى ﷺ.

فأخبرت عمر خبر المرأة، فاشتمل عمر على سيفه ثم أقبل إلى منزلها فوجد أباها متكئاً على باب داره. فقال:

يا أبا فلان مافعلت ابنتك فلانة.

قال: يا أمير المؤمنين جزاها الله خيراً هى من أعرف الناس بحق الله تعالى وحق أبيها مع حسن صلاتها وصياما والقيام بدينها.

فقال عمر: قد أحببت أن أدخل عليها فأزيدها رغبة فى الخير وأحثها على ذلك فقال الشيخ: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين.

فقال له: امكث مكانك حتى أرجع إليك.

فاستأذن عمر عليها، فلما دخل أمر عمر كل من كان عندها بالخروج. فخرجوا وبقيت هى وعمر فى البيت ليس معهما أحد؛ فكشف عمر عن السيف فقال: لتصدقنى - وكان عمر لا يكُذَّب.

فقالت: على رسلك يا أمير المؤمنين، فوالله لأصدقن.. إن عجوزاً كانت تدخل علىّ فاتخذتها أماً، وكانت تقوم من أمرى بما تقوم به الوالدة وكنت لها بمنزلة البنت. فأمضت بذلك حيناً حتى جاء يوم قالت لى فيه: يابنية إنه قد عرض علىّ سفر ولى بنت فى موضع أتخوف عليها فيه أن تضيع، وأريد أن أضمها إليك حتى أرجع من سفرى.

فعمدت إلى ابن لها كان شاباً أمرداً، فهيأته كهيئة الجارية وأتتنى به وأنا لا أشك أنه جارية. فكان يرى منى ماترى الجارية من الجارية حتى اغتفلنى يوماً وأنا نائمة، فما شعرت حتى علانى وخالطنى، فممدت يدى إلى شفرة كانت بجانبى فقتلته. ثم أمرت به فألقى حيث رأيت فولدت منه هذا الغلام. فلما وضعته ألقيته فى موضع أبيه. فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك.

فقال لها عمر: صدقت بارك الله فيك، ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج من عندها، وقال لأبيها: بارك الله فى ابنتك، فنعم الإبنة ابنتك. وقد وعظتها وأمرتها.

فقال له الشيخ: وصلك الله يا أمير المؤمنين وجزاك خيراً عن رعيتك.

***

الفراق.. الفراق ـ لعن الله الفراق!

روى عن ابن عباس أنه قال:

لما اعتقت بريرة وكان زوجها عبداً حبشياً مولى لبنى المغيرة، خُيرت فاختارت فراقه. فكان الرجل يطوف حولها ودموعه تَسيل على خديه حباً لها، ويتبعها ويترضاها.

فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس: أما ترى شدة حبه لها وشدة بغضها له؟

فقال لها النبى ﷺ: لو تزوجته..

قالت: إن أمرتنى!

قال: لا آمرك.. ولكنى شفيع. فلم تفعل.

***

ويحك... ماذا قلت؟!

كان رجل صوفى يدعى القاسم الشراك، وكانت له عنيزات يرعاهن، وذات يوم وبينما هو يرعى عنيزاته إذ سمع صبياً من صبيان الصحراء ينشد فى حقل:

إن هـــــواك الذى بقلبى	صيرنى سامعاً مطيعا
أخذت قلبى وغمض طرفى	سلبتنى العقل والهجوعا
فذر فؤادى وخذ رقادى	فقال لا.. بل هما جميعا
فراح منى بحاجتيه	وبت تحت الهوى صريعا

فاعتراه طربٌ شديد فقال للصبى وهو يقترب منه: كيف قلت:

ففزع الصبى وجرى. فتبعه وهو يقول: لا بأس عليك كيف قلت ياصبى؟فلم يقف الصبى ولم يجبه.

فرجع الراعى حرَّان أسِفاً وهو يصيح: فؤادى.. فؤادى. وظل يردد الأبيات.

***

وهب جاريته الحسناء لفقير ابتغاء رضوان الله

حكى موسى بن علقمة المكى قال:

كان عندنا ههنا بمكة نخاس، وكانت له جارية بارعة الحسن، وكان يوصف من جمالها وأدبها أمر عجيب. وكان مولاها يخرجها أيام الموسم فتبذل فيها الرغائب فيمتنع عن بيعها ويطلب الزيادة فى ثمنها. فما زال كذلك حيناً حتى تسامع بها أهل الأمصار، فكانوا يحجون عمداً للنظر إليها.

قال: وكان عندنا فتى من النساك قد نزع إلينا من بلده وكان مجاوراً لنا، فرأى الجارية يوماً فى أيام العرض لها، فوقعت فى نفسه وأحبها، وكان يجىء أيام العرض فينظر إليها وينصرف.

فلما حُجبت أحزنه ذلك ومرض مرضاً شديداً، ونحل جسمه واعتزل الناس وكان يقاسى البلاء طول السنة إلى أيام الموسم. فإذا خرجت الجارية إلى العرض خرج فنظر إليها فسكن ما به حتى تحجب. وبقى كذلك سنين ينحل ويذبل من شدة الوله وطول السقم.

فدخلت عليه يوماً ولم أزل به وألح عليه حتى حدثنى بحديثه وما يقاسيه وأوصانى بأن لا أذيع عليه ذلك ولا يسمع به أحد فرحمته لما يقاسى وما صار إليه فذهبت إلى مولى الجارية وأخبرته بحال الفتى وما صار إليه من السقم وأنه على حالة الموت.

فقال: قم بنا حتى أراه فقمنا وذهبنا إليه، فلما دخل مولى الجارية ورآه، وشاهد ماهو عليه من الهزال، لم يتمالك أن رجع إلى داره فأخرج ثياباً حسنة وقال أصلحوا فلانة ولبسوها هذه الثياب واصنعوا بها ماتصنعون أيام الموسم. ففعلوا. فأخذها بيدها وأخرجها إلى السوق ونادى فى الناس، فاجتمعوا فقال:

معاشر الناس اشهدوا أنى قد وهبت جاريتى فلانة لهذا، وماعليها ابتغاء ماعند الله.

ثم قال للفتى: تسلم هذه الجارية فهى هدية منى إليك بما عليها.

فجعل الناس يلومونه ويقولون: ويحك ماصنعت؟! قد بُذل فيها الرغائب فلم

تبعها، ووهبتها لهذا الفقير.

فقال: إليكم عنى فإنى قد أحييتُ كل من على وجه الأرض. قال الله تعالى: ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعاً﴾.

***

شجرة العروسين

قال عبد الله بن معمر القيس:

«حججتُ سنةً، ثم دخلت ذات ليلة مسجد المدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ، فبينما أنا جالس بين القبر والمنبر، إذ سمعت أنيناً فأصغيت إليه، فإذا هو يقول أبياتاً من الشعر منها:

ماكنت أحسبنى أهيم بها   حتى بليت وكنت لا أدرى!

ثم انقطع الصوت، فلم أدر من أين جاء؟ وإذا به قد عاد إلى البكاء والأنين قال: وكنت قد اقتربت منه، فرأيت شاباً قد خرق الدمع فى خده خرقين، فسلمت عليه، فقال: اجلس. . من أنت؟

قلت: عبد الله بن معمر القيسى.

قال: ألك حاجة؟

قلت: نعم، كنت جالساً فى الروضة فما راعنى إلا صوتك، فبنفسى أفديـــك . . فما الذى تجد؟

فقال: أنا « عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى» غدوت يوماً إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه، ثم اعتزلت غير بعيد، فإذا أنا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا، وإذا فى وسطهن جارية بديعة الجمال، فوقفت علىَّ فقالت:

ياعتبة، ماتقول فى وصل من تطلب وصلك؟

ثم تركتنى وذهبت؛ فلم أسمع لها خبراً، ولا قفوت لها أثراً، وأنا حيران أنتقل من مكانٍ إلى آخر، ثم صرخ وأكب مغشياً عليه، ثم أفاق، وأنشد:

ولست ألَذُّ العيشَ حتى أراكمُ   ولو كنتُ فى الفردوسِ فى جنة الخُلد

فقلت: يابن أخى تُبْ إلى ربك واستغفره من ذنبك، فبين يديك هول المطلع، فقال: ما أنا بسالٍ حتى يؤوب القارظان. ولم أزل معه حتى طلع الصبح.

فقلت: قم بنا إلى مسجد الأحزاب، فلعل الله أن يكشف كربتك.

فقال: أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طاعتك، فذهبنا إلى مسجد الأحزاب، ثم جلسنا حتى صلينا الظهر، وإذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن، فوقفن عليه، وقلن له: ياعتبة، ماظنك بطالبة وصلك وكاسفة بالك؟

قال: وما بالها؟

قلن: أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة.

فسألتُهن عن الجارية فقلن: هى« ريا ابنة الغطريف السلمى».

فقلت لعتبة: إنى قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر، ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك، وفوق الرضى، فقم بنا إلى مسجد الأنصار. فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملأ منهم، فسلمت فأحسنوا الرد، فقلت:

أيها الملأ ماتقولون فى عتبة؟

قالوا: من سادات العرب.

قلت: فإنه قد رمى بداهية من الهوى، وما أريد منكم إلا المساعدة إلى السماوة.

فقالوا: سمعاً وطاعة، فركبنا، وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بنى سليم، فأعلم الغطريف بنا، فخرج مبادراً فاستقبلنا وقال: حييتم ياكرام.

فقلنا: إنا لك أضياف.

فقال: نزلتم أكرم منزل، ثم نادى: يامعشر العبيد، أنزلوا القوم، ففرشت الأنطاع والنمارق، وذبحت الذبائح.

فقلنا: لسنا بذائقى طعامك حتى تقضى حاجتنا.

فقال: وماحاجتكم؟

قلنا: نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر.

فقال: إن التى تخطبونها أمرها إلى نفسها، وأنا أدخل أخبرها.

ثم دخل مغضباً على ابنته، فقالت: ياأبت مالى أرى الغضب فى وجهك؟

فقال: قد ورد الأنصار يخطبونك منى.

فقالت: سادات كرام، استغفر لهم النبى ﷺ، فلمن الخطبة منهم؟

فقال: لعتبة بن الحباب.

قالت: والله لقد سمعت عن عتبة هذا: أنه يفى بما وعد، ويدرك إذا قصد.

فقال: أقسمت لا أزوجنك به أبداً، ولقد نما إلىّ بعض حديثك معه.

فقالت: ماكان ذلك، ولكن إذا أقسمت، فإن الأنصار لا يُردون رداً قبيحاً، حسنٍ لهم الرد.

فقال: بأى شىء؟

قالت: أغلظ لهم المهر، فإنهم يرجعون ولا يجيبون.

فقال: ما أحسن ما قلت. ثم خرج مبادراً.

فقال: إن فتاة الحى قد أجابت. ولكن أريد لها مهراً مثلها. فمن القائم به؟

فقال عبد الله بن معمر: أنا. فقل ما شئت.

فقال: ألف مثقال من الذهب، ومائة ثوب من الأبراد، وخمسة أكرشة عنبر.

فقال عبد الله: لك ذلك كله، فهل أجبت؟

قال: أجل.

قال عبد الله: فأنفذت نفراً من الأنصار إلى المدينة فأتوا بجميع ما طلب ثم صنعت الوليمة، وأقمنا على ذلك أياماً.

ثم قال: خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين. ثم حملها فى هودج وجهزها

بثلاثين راحلة من المتاع والتحف، فودعناه وسرنا حتى إذا بقى بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة أحسبها من سليم. فحمل عليها «عتبة بن الخطاب» فقتل منهم رجالاً وجرح آخرين، ثم رجع وبه طعنة تفور دماً، فسقط إلى الأرض وقضى نحبه، فقلنا: واعتبتاه!

فسمعتنا الجارية، فألقت نفسها من البعير، وجعلت تصيح بحرقة وأنشدت:

تصبَّرتُ لا أنـــى صبـــرتُ وإنمـــا أعللَ نفسى أنها بكَ لاحـــقةْ

فلو أنصفتْ رُوحى لكانت إلى الردى أمامك من دون البرية سابقـــة

فما أحدٌ بعـدى وبَعْـــدكَ مُنْصِـــفٌ خليلاً، ولا نفسى لنفس مُوافقةْ

ثم شهقت وقضت نحبها، فحفرنا لهما قبراً واحداً ودفناهما فيه.

ثم رجعت إلى المدينة، فأقمت سبع سنين، ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة فقلت والله لآتين قبر «عتبة» أزوره فأتيت القبر فإذا عليه شجرة عليها عصائب حمرٌ وصفر.

فقلت لأرباب المنزل: مايقال لهذه الشجرة؟

قالوا: «شجرة العروسين»!

***

اليوم أعلم أنى غير قالون!

ذكر الخرائطى أن «عبد الله بن عمر» رضى الله عنهما اشترى جارية رومية فكان، يحبها حباً شديداً، فوقعت ذات يوم عن بغلة له، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويقبلها، وكانت تكثر من أن تقول:

«يابطرون أنت قالون»!

تعنى: يامولاى أنت جيد، ثم إنها هربت منه، فَوَجَد عليها وَجْداً شديداً، وقال:

قد كنت أحسبنى قالونُ فانصرفتْ فاليوم أعلم أنى غيرُ قالون!

***

أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له

جاءت جارية إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه تستعدى على رجلٍ من الأنصار فقال لها عثمان: ماقصتك؟

فقالت: كَلِفْتُ يا أمير المؤمنين بابن أخيه، فما أَنْفَكُ أُراعَيه.

فقال عثمان: إما أن تهبها لابن أخيك، أو أعطيك ثمنها من مالى.

فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

***

لا تساكننى ببلدٍ أنا فيه..

روى أنه بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف ذات ليلة فى سكك المدينة إذ سمع امرأة تهتف من خدرها وتقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها　　　أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتىً ماجد الأعراقّ مقتبـــلٌ　　　سهلُ المحيا، كريم غير ملجـاج!

فقال عمر رحمه الله: ألا أرى معى فى المصر رجلاً تهتف به العواتق فى خدورهن . . علىَّ بنصر بن حجاج.

فأُتى به، فإذا هو أحسن الناس وجهاً وشعراً. فقال عمر: علىّ بالحجّام فجز شعره، فخرجت له وجنتان كأنهما شقا قمر.

فقال له: اعتم، فاعتم، فافتتن الناس.

فقال عمر: والله لا تساكننى ببلد أنا فيه.

قال: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟

قال عمر: هو ما قلت.

فسيره إلى البصرة. وخشيت المرأة التى سمع منها عمر ما سمع أن يبدر إليها عمر بشىء فبعثت إليه أبياتاً تقول فيها.

قـل للإمـام الـذى تخشى بوادره　　　مـالى وللـخمر أو نصر بن حجاج
إنى عنيت أبا حـفص بغـيرهمـا　　　شرب الحليب وطرف غيره ساجى
لا تجعل الظن حقاً أو تبينـــــه　　　إن السبيل سبيل الخائف الراجـى

فبعث إليها عمر قد بلغنى عنك خبر، وإنى لم أخرجه من أجلك ولكن بلغنى أنه يدخل على النساء، ولست آمنهن.

ثم إن عمر كتب إلى عامله بالعراق كتباً، فمكث الرسول عنده أياماً ثم نادى مناديه: ألا إن بريد المسلمين يريد أن يخرج، فمن كانت له حاجة فليكتب فكتب نصر بن حجاج كتاباً ودسَّه فى الكتب ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عمر أمير المؤمنين سلام عليك أما بعد فلعمرى يا أمير المؤمنين لئن سيرتنى أو حرمتنى وما نلت منى عليك بحرام. وكتب هذه الأبيات:

أإن غنت الذلفاءُ يوماً بمُنيةٍ ... وبعض أمانيِّ النساء غرامُ

ظننت بى الظن الذى ليس بعده ... بقاء فما لى فى الندىّ كلامُ

ويمنعنى مما تظن تكرُّمى ... وآباء صدق سالفون كرامُ

ويمنعها مما تظن صلاتها ... وحال لها فى قومها وصيامُ

فهذان حالان فهل أنت راجعى ... فقد جبَّ منى كاهلٌ وسنام

فقال عمر لما قرأ الكتاب: أما ولى سلطان فلا.

فما رجع نصر بن حجاج إلى المدينة إلا بعد وفاة عمر رضى الله تعالى عنه.

***

كثُيِّر وعبد الملك بن مروان

دخل كثُيِّر عزة على عبد الملك بن مروان فجعل ينشد شعراً فى عزة وعيناه تذرفان. فقال له عبد الملك: قاتلك الله ياكثير، هل رأيت أحداً أعشق منك؟! قال: نعم يا أمير المؤمنين.. خرجت مرة أسير فى البادية على بعير لى، فبينا أنا أسير إذ رأيت على بعد شخصاً، فذهبت نحوه، فإذا رجل قد نصب شركاً للظباء وقعد بعيداً منه. فسلمت عليه، فرد السلام.

فقلت: ما أجلسك هاهنا؟

قال: نصبت شركاً للظباء فأنا أرصدها.

قلت: إن قمت له لديك فصدت أتطعمنى؟

قال: إى والله.

قال كثير: فنزلت، فعقلت ناقتى، وجلست أحدثه، فإذا هو أحسن خلق الله حديثاً وأرقه وأغزله.

فما لبثنا أن وقعت ظبية فى الشَرَك فوثب ووثبت معه فخلعها من الحبال، ثم نظر فى وجهها ملياً وأنشأ يقول:

أيا شِبْهُ ليلى لــن تُـراعى فــإنـنـى ... لكِ الـيومَ مـن بين الوحوش صديقُ

ويـاشـبـه لـيـلـى لن تزالى بـروضة ... عـلـيـك سـحـاب دائـم وبـروقُ

فـديـتـكِ مـن أسـرٍ دهــاك لحبـهـا ... فــأنـت لليـلـى مـاحـيـيـت طـلـيقُ

ثم أصلح شَرَكَهُ وعدنا إلى موضعنا فقلت والله لا أبرح حتى أعرف أمر هذا الرجل فأقمنا باقى يومنا فلم يقع شيء. فلما أصبحنا غدا ونصب شركه، فلم يلبث أن وقعت ظبية شبيهة بأختها بالأمس فوثب إليها ووثبت، فاستخرجها من الشرك ونظر فى وجهها ملياً ثم أطلقها فمرت وأنشا يقول:

اذهبى فى كلاءة الرحـمـن ... أنـت مـنـى فـى ذمـةٍ وأمــانِ

لا تخافى أن تفاجى بسوءٍ ... مـاتغـنّـى الحـمـام فى الأغصـانِ

ثم عدنا إلى موضعنا فلم يقع فى يومنا ذلك شيء. فلما أمسينا صرنا إلى الغار فبتنا فيه، فلما أصبحنا عدل إلى شركه وغدوت معه. فنصبه وقعدنا نتحدث وقد شغلنى يا أمير المؤمنين حسن حديثه عما أنا فيه من الجوع فبينما نحن نتحدث إذ وقعت فى الشَرَكْ ظبية فوثب إليها ووثبت معه، فاستخرجها من الشرك، ثم نظر فى وجهها وأراد أن يطلقها فقبضت على يده وقلت:

« ماذا تريد أن تعمل؟!.. أقمت ثلاثاً كلما صدت شيئاً أطلقته، فنظر فى وجهى وعيناه تزرفان، وأنشأ يقول:

أتلحى محباً هائم القلب أن رأى شبيهاً لمن يهواه فى الحبل موثقاً
فلما دنا منه تذكــــر شجـــوه وذكرَّهُ منْ قدْ نأى فتشـــــوَّقا

فرحمته والله يا أمير المؤمنين، وبكيت لبكائه، فإذا هو«قيس بن مُعاذ» المجنون فذاك أعشق منى يا أمير المؤمنين!

***

المرأة المُدللة...

يقول ابن قتيبة: قرأت فى سير العجم أن «أردشير» سار إلى الحضر، وكان ملك السواد ـ أى الريف والقرى ـ متحصناً فيها، فحاصره فيها زماناً لا يجد إليه سبيلاً، حتى صعدت ابنة الملك يوماً إلى سطح القصر، فرأت «أردشير» فعشقته، وأخذت سهماً وكتبت عليه.

« إن أنت شرطت لى أن تتزوجنى، دللتك على موضع تفتح منه هذه المدينة بأيسر حيلة، وأخف مؤونة».

ثم رمت بالسهم نحو أردشير فكتب الجواب لها فى سهم:

«لك الوفاء بما سألت».

ثم ألقاها إليها ، فكتبت إليه تدله على الموضع، فأرسل إليه أردشير فافتتحه، ودخل هو وجنوده، وأهل المدينة غافلون فقتل ملكها وتزوجها.

فبينما هى ذات ليلة على فراشه، أنكرت مكانها حتى سهرت لذلك طيلة ليلها ـ فنظروا فى الفراش فوجدوا تحت الحشيَّة ورقة من ورق الآس ـ نوع من النبات ـ قد أثرت فى جلدها.

فسألها أردشير عند ذلك عما كان أبوها يغذوها به فقالت ـ كان أكثر غذائى الشهد والزبد والمخ.

فقال أردشير:

« ما أحدٌ ببالغ لك فى الإكرام مبلغ أبيك، ولئن كان جزاؤه عندك على جهد إحسانه مع لطف قرابته وعظم حقه جهد إساءتك، ما أنا بآمن لمثله منك!»

ثم أمر بأن تعقد قرونها - أى شعرها - بذنب فرس شديد المراح جموح ثم يجرى ففُعِل ذلك حتى تساقطت عضواً عضواً.

***

بنات الأمراء

حدَّث شيخ يعرف بأبى عبيدة كان ينادم إسحاق بن إبراهيم المصعبى صاحب الشرطة ببغداد أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل قال: . .

« استدعانى إسحاق المصعبى ذات ليلة فى نصف الليل، فخرجت طائر العقل حتى أتيت داره. فأُدخلت من دار إلى أخرى، إلى أن دخلت دار الحرم، فاشتد جزعى، وسمعت فى الدهليز بكاء امرأة متخافتاً. وكان إسحاق جالساً على كرسى، وبين يديه سيف مسلول.

فقال: اجلس يا أبا عبيدة.

فسكن روعى. . . وجلست، فرمى إلىَّ برقاع أصحاب الشرط فى الأرباع يخبر كل واحد منهم بخبر يومه. وفى أكثرها كبسات وقعت بنساء من بنات الوزراء والرؤساء من الكتاب، وبنات القواد والأمراء، مع رجال على ريب. وأنهن محبوسات حتى ينظر فى أمرهن.

فقلت: قد وقفت على هذه الرقاع، فما يأمرنى الأمير؟

فقال: « إن هؤلاء كلهن أجلُّ آباءً منى، وأكثر حسباً ومالاً، وقد أفضى بهن الدهر إلى ما قد رأيت. وقد وقع لى أن بناتى سيبلغن إلى هذا المصير. وقد جمعتهن - وهن خمس - بالقرب من هذا الموضع لأقتلهن كلهن الساعة وأستريح. فما ترى فى هذا؟

فقلت: أيها الأمير؛ إن آباء هؤلاء المحبوسات أخطأوا فى تدبيرهن لأنهم خلفوا عليهن النِّعم، ولم يحفظوهن بالأزواج، فخلون بأنفسهن ففسدن، ولو كانوا علقوهن على الأكفاء ما جرى هذا منهن.

والذى أراه أن تستدعى فلاناً القائد، فله خمسة بنين، كلهم جميل الوجه، حسن النشأة، فتزوج كل واحدة منهن بواحد فتكفى العار والنار.

فقال: أحسنت والله يا أبا عبيدة، أنفذوا الساعة إليه.

فراسلت الرجل، فما طلع الفجر حتى حضر وأولاده، وعقدت النكاح لهم على بنات إسحاق فى خطبة واحدة.

***

السفير والمرأة

« يقول الأستاذ عمر بهاء الأميرى ـ وهو سفير سورى سابق، وشاعر إسلامى كبير ـ: توقفت ليلة فى جنيف، وفى ناد ليلى كنت أجلس وحيداً، أتأمل الناس. جاءت احدى المضيفات تجلس بجوارى وسألتنى:

أتشرب عصير البرتقال؟!

قلت : نعم

قالت: وهل يمنعك الطبيب من شرب الخمر؟

فقلت: طبيب الكون الأعظم. . الله قد حرمها، وأنا مسلمٌ مطيع.

قالت: فقدِّمْ لى كأساً من الخمر.

فقلت: معاذ الله كيف أقدم الأذى للناس وقد صُنت عنه نفسى؟

قالت: وماذا يهمك من أمرى؟

قلت: نحن من أسرة واحدة.

عجبت وسألت: كيف؟!

قلت: أسرة الإنسانية، إنها كلها أسرة المسلم.

قالت: ومن أنبأك أنى إنسانة؟. . لقد أنسيت ذلك من زمن طويل.

قلت: بل إنسانة؛ والمسلم لا ينسى الحق.

قالت: دعك من إنسانيتى، أنا هنا لأمارس حيوانيتى.

قلت: وليس مكانك هنا.

قالت: وأين؟

قلت: إلى جوار سرير طفل، فى كنف زوج.

فأخذتها حرقة، وتساقطت من عينيها دموع، وتمتمت: ما أرحمك وما أظلمك.. ذكرتنى بإنسانيتى، فأحييتنى حتى أبكيتنى، ولكن..ما الجدوى؟ إنسانة ولا أستطيع أن أعيش إنسانيتى ربع ساعة نتابع حديثنا، فإن علىَّ أن أقوم فوراً لأمارس« حيوانيتى» مع سواك. وقد أخفقت معك لأنها مهنتىَ

ونظرات صاحب النادى تلاحقنى لذلك بضراوة لا رحمة فيها.

فكتب شعراً يقول فيها:

البائسـات المائسـات
كآلة من غيـر روح
الناشـرات شـذىً
ومن أعماقهن أذىً يفـوح
الضاحكـات وقد طوين
قلوبهن على جـروح!!

***

آه من فتنة الشباب!

فى صيف سنة١٩٥٢، كانت باريس كلها محتشدة فى حدائق قصر التويليرى لتشهد المهرجان السنوى الذى يخصص دخله لمساعدة المحاربين القدماء ومشوهى الحرب وجاءت بنات الفن وأبناؤه من مصايفهن فى أطراف فرنسا، بل من أطراف أوربا ليشتركوا فى المهرجان، وجاءت معهم «مستنجيت» الفنانة التى عرفت المتعة والملوك والشهرة. وهرعوا إلى المسرح، وتصايحت الجماهير: مستنجيت.. مستنجيت...!!

فإذا امرأة عجوز عجفاء العجز، تقترب من الثمانين تهتز على المسرح، ولا أقول ترقص.. بل ترتعش!

قلت: سبحان الله.. أهذه هى التى طالما أحرقت القلوب وأدمعت العيون؟!

أهذه هى التى انتحر من أجلها أكثر من رجل، وتبارز من أجلها أكثر من عاشق؟!

آهٍ من فتنة الشباب.. وآهٍ منها عندما تولى.

(صالح جودت ـ ملوك وصعاليك)

***

يارسول الله هل لى من توبة...؟

ذكر أنه فى بدء الإسلام كان هناك شاب يقال له« بشر» من بنى أُسيد بن عبدٍ العزى، كان يختلف إلى رسول الله ﷺ، وكان فى طريقه إلى الرسول الكريم يمرُّ على قبيلة جهينة، وإذا فتاة من جهنية قد نظرت إليه فعشقته وكان لها من الجمال والحسن حظٌ وافر، وكان لها زوج يقال له« سعد بن سعيد» فكانت الفتاه تقعد كل غداة لبشر حتى يجتاز بها لينظر إليها. فلما أخذها حبه كتبت إليه:

تمر ببابى ليس تعلم ما الذى ... أعالج من شوق إليك ومن جُهد

فديتك فانظر نحو بابى نظرةً ... فإنك أهوى الناس كلهم عندى

فأجابها الفتى يقول:

عليك بتقوى الله والصبر إنه ... نهى عن فجور بالنساء موحد

وصبراً لأمر الله لا تقربى الذى ... نهى الله عنه والنبى محمد

فوالله لا آتى حليلة مسلمٍ ... إلى أن أدلى فى القبور وأُفقد

فلا تطمعى فى أن أزورك طائعاً ... وأنت لغيرى بالخناء معّود

فأجابته الفتاة تقول:

أمرت بتقوى الله والصبر والتقى ... فكيف ومالى من سبيل إلى الصبر

ووالله ما أدعوك ياحب للذِى ... تظن ولكن للحديث وللشعر

وكى نتداوى ماتراكد داؤه ... من الشوق والحب الذى لك فى صدرى

فأجابها الفتى يقول:

منَعَ الزيارة أن أزورك طائعـــاً أخشى الفسادَ إذا فعلتُ فتعتدى

أخشى دنـــواً منك غير محلل فأكـــون قد خالفت دين محمدِ

فأخـــاف أن يهواك قلبى شارفاً فيكون حتفى بالذى كسبتْ يدى

فالصبر خير عزيمـــة فاستعصمى وإلى إلهك ذى المعارج فاقصدى

وعليك ياسيـــن فإن بدرسها تنقى الهموم وذاك نفسك عودى

فأجابته الفتاة تقول:

لعمرك ماياسين تغنى من الهوى وقربك من ياسين أشهى إلى قلبى

فلما قرأ « بشر» هذه الأبيات غضب غضباً شديداً وحلف لا يمر بباب « هند» ولا يقرأ لها كتاباً فلما امتنع كتبت إليه تقول:

سألت ربى فقد أصبحتَ لى شَجَناً أن تُبتلى بهـــوى من لا يباليكا

حتى تذوق الذى قد ذُقْتُ من نَصَبٍ وتطلبُ الوصـــلَ ممنْ لا يُؤاتيكا

فلما لجً «بشر» وترك المر ببابها، أرسلت إليه بوصيفة لها فأنشدته هذه الأبيات، فقال للوصيفة: لأمرٍ ما لا أمرٌ

فلما جاءت الوصيفة أخبرتها بقول بشر فكتبت تقول:

كفِّر يمينك إن الذنب مغفور واعلم بأنك إن كفرت مأجور

فلما لجً بشر وترك المر ببابها، اشتد عليها ذلك فمرضت مرضاً شديداً فبعث زوجها إلى الأطباء، فقالت: لاتبعث إلىّ طبيباً فإننى عرفت دائى قهرنى جنى فى مغتسلى فقال لى تحولى عن هذه الدار فليس لك فى جوارنا خير. فقال لها زوجها: فما أهون هذا.

فقالت: إنى رأيت فى منامى أن أسكن بطحاء تراب.

قال لها: اسكنى بنا حيث شئت.

فاتخذت داراً على طريق بشر، فجعلت تنظر إليه كل غداة إذا غدا إلى رسول الله ﷺ حتى برأت من مرضها وعادت إلى حسنها. فقال لها زوجها: إنى لأرجو أن يكون لك عند الله خير لما رأيت فى منامك فأكثرى من الدعاء.

وكانت مع هند فى الدار عجوز فأفشت إليها أمرها، وأخبرتها أنها خائفة إن علم بشر بمكانها يترك المر فى طريقه ويأخذ طريقاً آخر.

فقالت لها العجوز: لا تخافى، فإنى أعلم لك أمر الفتى كله، وإن شئت أقعدتك معه ولا يشعر بمكانك.

قالت: ليت ذاك قد كان.

فقعدت العجوز على باب الدار فلما أقبل بشر قالت له العجوز:

يا فتى هل لك أن تكتب لى كتاباً إلى ابن لى بالعراق.

قال بشر: نعم

فقعد يكتب والعجوز تملى عليه، وهند تسمع كلامهما. فلما فرغ بشر قالت العجوز له: إنى لأظنك مسحوراً.

قال بشر: وما أعلمك بذلك؟

قالت له: ماقلت لك حتى علمت فمن الذى تتهم؟

قال لها: إنى كنت أمر على جهينة وإن قوماً منهم كانوا يرسلون إلىّ ويدعوننى إلى أنفسهم ولست آمنهم أن يكونوا قد أضمروا لى شراً.

فقالت العجوز: انصرف اليوم حتى أنظر فى أمرك.

فلما انصرف دخلت المرأة إلى هند فقالت: هل سمعت ماقال؟

قالت: نعم.

قالت: أبشرى فإنى أراه فتى حدثاً لاعهد له بالنساء، ومتى أتى زَيَّنتُك وطيَّبتُكِ وأدخلتك عليه، فتغلب شهوته دينه.

فانظرى أى يوم يخرج زوجك إلى القرية فأخبرينى.

فسألت هند زوجها، فأخبرها أنه خارج يوم كذا وكذا. وأخبرت هند العجوز. وواعدت بشراً ميعاداً لتنظر فى أمره.

فلما جاء الوقت المعلوم، جاء بشر إلى العجوز فقالت: إنى شاكية لست أقدر أعمل النشرة ولكن بيتى أستر عليك. فدخل معها البيت وجاءت هند خلفها فدخلت البيت على بشر، فلما دخلت خرجت العجوز وغَلَّقتِ الأبواب عليهما.

وجاء زوج هند ـ فى ذلك الوقت ـ من الضيعة، حتى دخل داره، فوجد مع امرأته رجلاً فى البيت فطلقها. وذهب بالفتى إلى رسول الله ﷺ وقال: يانبى الله سَلْ هذا بأى حقٍ دخل دارى وجامع زوجتى؟

فبكى بشر وقال: والله يارسول الله ماكذبتك منذ صدقتك، وماكفرت بالله منذ آمنت بك، ولا زنيت منذ شهدت أن لا إله إلا الله.

فقص على النبى ﷺ قصته فبعث النبى إلى العجوز وهند فحضرا وأقرا بين يديه.

فقال النبى: (**الحمد لله الذى جعل من أمتى نظير يوسف الصديق**).

ثم قال لهند: استغفرى لذنبك وأدِّبَ العجوز وقال لها: أنت رأس الخطيئة. فرجع بشر إلى منزله، وهند إلى منزلها. فهاج بشراً حب هند، فسكت حتى إذا قضت عدتها بعث إليها يخطبها. فقالت: لا والله لا يتزوجنى وقد فضحنى عند رسول الله ﷺ. ثم مرض من حبها وعاد إليها الرسول فقال أنه مريض وإنك إن لم تفعلى ليموتن.

فقالت: أماته الله، فطالما أمرضنىَ.!

واشتدَّ المرضُ على بشر. وبلغ أصحاب النبى ﷺ أمره فأقبلوا إليه يعودونه. وقال أحدهم أنا أرجو أن يعذب الله هنداً.

وشهق الشاب شهقة فمات رحمه الله. فلما سمعت هند بالخبر وذهبت تُعزِّى أخته، صرخت صرخة ووقعت ميتة ـ رحمهما الله.

وذهب بها فدفنت مع بشر. فلما مضت أيام جاءت العجوز إلى النبى ﷺ فقالت:

يارسول الله أنا رأس الخطيئة كما قلت، أنا الذى كنت سبب الأمر، وقد خشيت أن لا تكون لى توبة.

فقال النبىﷺ: (**استغفرى لذنبك وتوبى،فإن الله تعالى يقبل التوبة النصوح**).

***

لم يكن هذا كلامك لى!

ذكر ابن الجوزى عن خالد بن صفوان التيمىٍّ أنه دخل على أبى العباس السفاح وليس عنده أحد، فقال: يا أمير المؤمنين! إنى والله مازلت منذ قلدك الله الخلافة أطلب أن أصير إلى مثل هذا الموقف فى الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب حتى أفرغ فليفعل. فأمر الحاجب بذلك فقال:

« يا أمير المؤمنين! إنى فكرت فى أمرك وأَجَلْتُ الفكر فيك، فلم أر أحداً له قدرة واتساع على الاستمتاع بالنساء مثلك، ولا أضيق فيهن عيشاً منك! إنك ملكت نفسك امرأة من نساء العالمين فاقتصرت عليها فإن مرضتْ مرضتَ، وإن غابتْ غبتَ، وحرمت نفسك يا أمير المؤمنين التلذذ باستطراق الجوارى ومعرفة اختلاف أحوالهن، وما يُشتهى منهن؛ فإن منهن الطويلة التى تُشتهى لجسمها، والبيضاء التى تُحب لرؤيتها، والسمراء الحسناء، والصفراء الذهبية، وبنات المدينة واليمامة والطائف ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك وما يشتهى من نضارتهن ونظافتهن،وأطنب خالد فى وصف صفات الجوارى والنساء.

فلما فرغ من كلامه قال له السفاح: ملأت مسامعى بما شغل خاطرى، والله ما سَلَكَ مسامعى كلامٌ أحسنُ من هذا، فأعد علىّ كلامك، فقد وقع منى موضعاً فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأه. ثم قال له: انصرف.

فانصرف وبات أبو العباس مفكراً، ثم دخلت عليه أم سلمة زوجته وكان قد حلف لها ألا يتخذ عليها زوجة ووفى لها بذلك، فلما رأته على تلك الحالة قالت له: إنى لأنكرك يا أمير المؤمنين. فهل حدث شىء أو أتاك خبر ارتعت له؟

قال: لا.

فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد.

فقالت: وما قلت لابن الفاعلة؟!

فقال لها: أينصحني وتشتمينه؟

فخرجت إلى مواليها وأمرتهم بضرب خالد بن صفوان.

قال خالد: فخرجت من الدار مسروراً بما ألقيت إلى أمير المؤمنين، ولم أشك في الصلة. فبينما أنا واقف إذ أقبلوا يسألون عني، فتوقعت أن الأمير أمر لي بالجائزة، فقلت لهم: ها أنذا.

فاستَبَقَ إليَّ أحدهم بخشبة، فغمزتُ برزوني، فركضتُ فَفُتُّهم واستخفيتُ في منزلي أياماً، ووقع في قلبي أن هذا الفعل من أم سلمة.

فبينما أنا ذات يوم جالسٌ في المجلس، فلم أشعر إلا بقوم قد هجموا عليَّ وقالوا: أجب أمير المؤمنين!

فسبق إلى قلبي أنه الموت، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون والله لم أر دم شيخ أضيع من دمي. فركبت إلى دار أمير المؤمنين فوجدته جالساً، ولمحت في المجلس بيتاً عليه ستورٌ رقاقٌ، وسمعت حِسًّا من خلف السِّتْرِ. فأجلسني ثم قال: ويحك يا خالد! وصفت لأمير المؤمنين صفة فأعدها!

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. أخبرتك أن العرب إنما اشتقت اسم الضرَّتين من الضرر، وأن أحداً لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلا كان في تنغيص وضُرّ.

فقال السفاح: لم يكن هذا كلامك لي!

قلت: بلى يا أمير المؤمنين! وأخبرتك أن الثلاث من النساء يُدخلن على الرجل البؤس ويُشبن الرأس.

فقال السفاح: ما سمعت هذا منك، ولا مرَّ في حديثك.

قلت: بلى يا أمير المؤمنين! وأخبرتك أن الأربع من النساء شرٌّ مجموع لصاحبهن يُشبنه ويُهرمنه.

قال: والله ما سمعت هذا منك أولاً.

قلت: بلى والله!

قال: أتكذِّبنى؟

قلت: أفتقتلنى؟ نعم والله يا أمير المؤمنين. إن أبكار الإماء رجالٌ.

قال خالد: فسمعت ضحكاً من خلف السِّتر ثم قلت: بلى والله وأخبرتك أن عندك ريحانة قريش وأنت تطمح بعينيك إلى الجوارى والنساء.

فقيل لى من وراء الستر: صدقت والله ياعمّاهُ، بهذا حدثته ولكنه غير حديثك، ونطق بما فى خاطره على لسانك.

فقال له السفاح: قاتلك الله.

قال خالد: فانسللت وخرجت، فبعثتْ إلىّ أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذُون وتختِ ثياب.

***

يريد المرء أمراً، ولكن الله يريد غيره!

روى أنه فى أحد الأيام كان النبى ﷺ جالساً مع بعض أصحابه، وكانوا يتحدثون بشتى المواضيع، ثم تطرق الحديث إلى البلدان الأجنبية، فذكر النبى أن المسلمين سيفتحون الحيرة. وكان هنالك رجل مسلم بسيط، يدعى «شُوْيل» فقال للنبى الكريم:

« يارسول الله، إذا فتحنا الحيرة، هل تعطينى« كرامة بنت عبد المسيح»؟

كانت كرامة، ابنة عبد المسيح أميرة، وكان سكان الجزيرة العربية قد سمعوا بجمالها الأخَّاذ، وكانت أجمل امرأة موجودة فى الحيرة.

فابتسم الرسول وقال، «هى لك».

وعندما تم فتح الحيرة فى خلافة أبى بكر الصديق، وعلى يد القائد خالد بن الوليد، وجاء عمرو بن عبد المسيح نائباً عن قومه للتفاوض مع المسلمين وكتابة شروط الاستسلام، واقترب « شويل» ـ الذى كان يعمل خادماً لدى خالد ـ سيف الله ـ وقال لخالد:

« أيها الأمير عندما تستسلم الحيرة هل بإمكانى أن آخذ كرامة بنت عبد المسيح؟ لقد وعدنى بها رسول الله».

فقال خالد: هل لديك شهود.

قال شويل: نعم والله. وأحضر شهوده الذين أيدوا كلامه.

عندئذ أضاف خالد هذه النقطة كمادة فى الاتفاقية مع أهل الحيرة: « وتعطى كرامة بنت عبد المسيح إلى شويل!».

فبكت نساء بيت عبد المسيح عندما سمعن بذلك النبأ، فكيف يمكن لأميرة عاشت حياتها فى رفاهية وسؤدد أن تُعطى لأعرابى بسيط يعيش فى الصحراء؟!

ومما جعل هذا الأمر مضحكاً أن « كرامة» كانت تبلغ الثمانين من عمرها!

لقد كانت فى يومٍ ما أجمل بنات زمانها.. لكن ذلك كان منذ زمن بعيد.

فقالت الأميرة: خذونى إليه فإنما هذا رجل أحمق رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم؟!

وكان شويل ينتظر جائزته، وبينما هو غارق فى أحلامه الجميلة إذ دخلت عليه كرامة ووقفت أمامه، وعندما رآها شويل أصيب بالذهول والكآبه، وظل صامتاً حيث خانه الكلام.

فكسرت الأميرة الصمت وقالت: ما أربك على عجوز كما ترى؟ فدعنى أرحل.

ووجد شويل الفرصة أمامه لكى تدفع له ثمن حريتها. فقال لها:

لا... إلا على حكمى.

فقالت: لك حكمك مُرْسَلاً.

فقال: لستِ لأم شويل إن نقصتك من ألف درهم.

فاستكثرت العجوز ذلك لتخدعه، ثم دفعت إليه المبلغ فى الحال ورجعت إلى أهلها.

فتسامع الناس بذلك فعنفوه فقال: ماكنت أعرف أن عدداً يزيد على ألفا!!

وعندما سمع بذلك خالد بن الوليد ضحك وقال: « يريد المرء أمراً، ولكن الله يريد غيره».

***

الفارس المقَنَّع

كان ضرَّار بن الأزور بطلاً من أبطال المعارك الإسلامية فى بلاد الشام، وكان يلقب بـ « الفارس عارى الصدر» لأنه كان يخلع سترته عندما يشتد أوار الحرب فيدب الرعب فى أوصال أعدائه.

وفى إحدى المعارك بينما كان ضرار يهاجم بعنف أمام رجاله، تعرَّف عليه أعداؤه، وصاحوا: «هاهو البطل عارى الصدر» وقرروا أن يأخذوه حياً إلى إمبراطورهم ويقدموه كهدية له. فكثيراً ما سمع عن بطولاته.

وعندما أصيب ضرار بسهم فى ذراعه الأيمن وتغلب عليه الروم أخذوه إلى المؤخرة. وتسلم القيادة من بعده رافع بن عميرة، وشنَّ عدة هجمات للوصول إلى ضرار وإنقاذه ولكن محاولاته باءت بالفشل فأرسل إلى خالد بن الوليد - القائد العام للقوات الإسلامية آنئذ - يخبره بما حدث.

وانطلق خالد فى وقت ما بين منتصف الليل والفجر على رأس قوة تبلغ أربعة آلاف خيّال، وفى الصباح وصل خالد بجيشه إلى ساحة المعركة الناشبة بين رافع والروم.

وعندما اقترب خالد من ميدان المعركة رأى فجأة أحد الخيالة المسلمين يمر من خلفه ويتجه نحو الروم بسرعة وقبل أن يتمكن خالد من إيقافه استطاع هذا الخيال أن يصل إلى صفوف الروم. وكان هذا الخيال نحيلاً، ويرتدى زياً أسودًا، ويغطى صدره بدرع، وكان يتسلح بسيف ورمح كبير، ويضع على رأسه عمامة خضراء، ويلف وجهه بقناع بحيث لا يُرى منه سوى العينين. ورأى رافع هذا الخيال قبيل رؤيته لخالد، وعلق قائلا:

« إنه يهجم مثل خالد، ولكنه ليس خالداً».

كان هذا الخيال يهجم على صفوف الروم فيقتل منهم برمحه المخيف، وكان يبدو وكأنه يريد الانتحار، فثيابه ورمحه كانت تقطر دماً.

وأثار هذا الخيال حماسة وشجاعة المسلمين، فعادوا إلى القتال بروح معنوية عالية وبعد أن بدأ الهجوم العام، اقترب خالد من الخيال المقنعً وقال له: «أيها الفارس أرنا وجهك».

فنظر الفارس بعينيه السوداوين إلى خالد ثم انطلق بسرعة نحو صفوف الروم لمتابعة القتال بعدئذ استطاع نفرٌ قليل من رجال خالد بن الوليد أن يوقفوا هذا الخيال، وقالوا له: «أيها المقاتل الكريم، قائدك يناديك وأنت تهرب منه، أرنا وجهك وأخبرنا عن اسمك كى يكرمك القائد» وعندما مرَّ بالقرب من خالد، توقف، فقال خالد: «لقد فعلت ما فيه الكفاية لتملأ نفوسنا بالإعجاب، فمن أنت؟

وعندما سمع خالد الإجابة أوشك أن يسقط عن فرسه، لأن الصوت كان لفتاة: «أيها القائد لقد ابتعدت عنك بسبب التواضع فقط، فأنت القائد العظيم، وأنا واحدة من أولئك الذين يبقون خلف الحجاب لقد قاتلت كما رأيت لأن قلبى يشتعل ناراً».

فقال خالد بن الوليد لها: من أنت؟

فقالت الفتاة: أنا خولة، أخت ضرَّار، لقد أُسر أخى، وعلىَّ أن أقاتل لإطلاق سراحه.

عند ذلك أعجب خالد بالرجل العجوز، الأزور، والد هذين المقاتلين الجريئين، الشاب والفتاة، ثم قال لها خالد: « إذن تعالى وهاجمى معنا».

***

لقاء على جسر بغداد

حكى ابن الجوزى أن رجلاً قعد على جسر بغداد، فأقبلت امرأة من جهة الرصافة إلى الجانب الغربى، فاستقبلها شابٌ فقال لها: رحم الله ابن الجهم.

فقالت: ورحم الله المعرى. ولم يقفا، بل مرًّا مشرقاً ومغرباً.

قال: فتبعت المرأة وقلت لها: إن لم تقولى لى ما قلتما فضحتك!

فقالت: أراد قول علىّ بن الجهم:

عُيونُ المَهَابين الرصـــافةِ والجِسْرِ ... جَلَبْن الهوى من حيثُ أدرى ولا أدرى!

وأردت قول أبى العلاء المعرى:

فيا دارها بالحَـــــزْن إن مزارها ... قريبٌ، ولكن دون ذلك أهوال!

***

معاوية وزوجته الحسناء

حُكِى أن «مَيْسُونَ» بنت بحدل الكلبية لما اتصلت بمعاوية، وكانت ذات جمال باهر وحُسنٍ غامر، أعجب بها، وهيأ لها قصراً مشرفاً على الغوطة، وزينه بأنواع الزخارف، ووضع فيه من أوانى الذهب والفضة ما يضاهيه. ونقل إليه من الديباج ماهو لائق به، ثم أسكنها مع وصائف لها كأمثال الحور العين. فلبست يوماً أفخر ثيابها، وتزينت وتطيبت، ثم جلست وحولها الوصائف ونظرت إلى الغوطة وأشجارها، وسمعت تغريد الطير فى أوكارها، وشمت نسائم الرياحين والأزهار، فتذكرت نجداً، وحنَّت إلى أترابها وأناسها، وتذكرت مسقط رأسها، فبكت وتنهدت، فقالت لها بعض خدمها:

ـ ما يبكيك وأنت فى مُلْكٍ يضاهى ملك بلقيس؟

فتنفست الصعداء، ثم أنشدت:

لَبيتٌ تخفقُ الأرواحُ فيــــــه ... أحبُّ إلىّ من قصرٍ مُنيــــفِ

ولُبسُ عباءةٍ وتقـــــــرُّ عينى ... أحبُّ إلىّ من لُبْسِ الشُفــوف

وأكلُ كُسيرةٍ فى كِسْــــــر بيتى ... أحب إلىّ من أكل الرغيـــف

وأصواتُ الرياح بكل فــــج ... أحب إلى من نقر الدفــوف

وكلبٌ ينبح الطـــــــرَّاقَ دُونى ... أحب إلىّ من قِطٍّ ألَـــوُفِ

وبكْرٌ يتبع الأظعان صعـــــبٌ ... أحب إلىّ من بغل زفـــوفِ

وخرِق من بنى عمى نحيــــف ... أحبّ إلى من علج عَنُـــوفِ

(والبكْرُ هو الفتى من الإبل، والخَرِقُ من الفتيان الظريف فى سماحةٍ ونجدةٍ).

فلما دخل معاوية عرفته الخادمة بما قالت ميسون زوجته. وقيل أنه سمعها وهى تنشر ذلك، فقال: مارضيتْ بنت مجدل حتى جعلتنى علجاً عنوفاً، هى طالق ثلاثاً، مروها فلتأخذ جميع مافى القصر فهو لها. ثم سيَّرها إلى أهلها وكانت حاملاً بيزيد فولدته فى البادية، وأرضعته سنتين، ثم أخذه معاوية منها بعد ذلك.

***

العذرىّ والحسناء...

روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه «الأغانى»، أن حماداً الراوية قال: أتيت مكة، فجلست فى حلقة فيها عمر بن أبى ربيعة المخزومى فتذاكرنا العذريين - أى بنو عذرة - فقال عمر بن أبى ربيعة:

«كان لى صديق من بنى عذرة يقال له«الجعد بن مهجع»، وكان يلقى من الصبابة ما لا يحتمله إلا عذرى، على أنه كان شاباً لا عاهر الخلوة، ولا سريع السلوة، وكان يوافى فى موسم الحج فى كل سنة، فإذا راث - تأخر - عن وقته ترجمت عنه الأخبار، وتوكفت له السفار حتى يقدم، فإذا قدم تحدثنا حديث صبيين عاشقين محزونين.

وقد ارتاث على ذات عام خبره حتى قدم وافد عذرة؛ فأتيت القوم أنشد صاحبى، فإذا غلام يتنفس الصعداء، ثم قال: عن أبى السهر تسأل؟

قلت: عنه نشدت، واياه أردتُ.

قال: هيهات هيهات، لقد أصبح والله لا مؤيساً فيُمهل، ولا مرجُوًّاً فيعلل، فهو - والله - كما يقول الشاعر:

لعمرك ماحبى لأسمـــــاء تاركى أعيش ولا أقضـــــى به فأموتَ

قلت: وما الذى به رحمك الله؟

قال: مثل الذى بك من التهالك فى الضلال، وجرٌّ أذيال الخيبة والخسار كأنما لم تسمعا بجنةٍ أو بنار.

قلت: من أنت يا ابن أخى؟

قال: أنا أخوه.

قلت: أما والله ما يمنعك أن تركب طريق أخيك، وتسلك مسلكه إلا أنك وإياه كالوش والبجاد، لا يرقعك ولا ترقعه، ثم صرفت وجه ناقتى. فلما حججت وقفت فى الموضع الذى كنا أنا وهو نقف فيه من عرفات، فإذا إنسان قد أقبل وقد تغير لونه وساءت هيئته، فما عرفته إلا بناقته، فأقبل حتى خالف بين أعناقهما، فاعتنقنى وجعل يبكى:

فقلت: ما الذى دهاك؟!

فقال: برح العذل وطول المطل ثم أنشأ يقول:

لئن كانت عدية ذات لُبٍ	لقد علمت بأن الحب داءُ
ألم تر ويحها تغيير جسمى	وأنى لايفارقنى البكاء
إذا العذرى مات بحتف أنفٍ	فذاك العبد يبكيه الرثاء

فقلت: يا أبا المهر، إنها ساعة تضرب إليها أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها، فلو دعوت كنت قمناً أن تظفر بحاجتك. فدعا، حتى إذا دنت الشمس للغروب، وهمَّ الناس بالإفاضة، هَمْهَمَ بشىء، فأصغيت له، فسمعته يقول:

يارب كل غدوة وروحـــــــــة	من محرم يشكو الضحى واللوحة

أنت حسيب الخلق يوم الدوحة

قلت: وما يوم الدوحة؟

قال: والله لأخبرنك ولو لم تسألنى.

ثم تيممنا مزدلفة فقال: « إنى رجلٌ ذو مال ونعم وشاءٍ، وإنى خشيت على إبلى التلف، وأصاب الغيث أرض كلب، فانتجعت أخوالى منهم، فأوسعوا لى عن صدر المجلس وسقونى جمة الماء، وكنت معهم فى خير أحوال ثم إنى عزمت

على مرافقة إبلى بماءٍ لهم يقال له «الحردان»، فركبت فرسى، وعلقت شراباً معى كان أهداه إلى بعض الكلبيين، ثم انطلقت، حتى إذا كنت بين الحى ومرعى النعم، وبدت لى دوحة عظيمة، فنزلت عن فرسى وشددته بغصن من أغصانها، وجلست فى ظلها، فبينما أنا كذلك إذ سطع غبار من ناحية الحى، ثم رفعت لى شخوص ثلاثة، ثم تبينت فإذا فارسٌ يطارد مِسْحَلاً[1] وأتاناً، فلما قرب منى إذا عليه درع صفراء وعمامة خز سوداء وإذا فروع شعره تضرب خصريه.

فقلت فى نفسى: غلام حديث عهد بعرس، أعجلته لذة الصيد فنسى ثوبه وأخذ ثوب امرأته.

فما لبث أن لحق المسحل فصرعه، ثم ثنى طعنة للأتان، وأقبل وهو يقول:

نطعنهم سلكى ومخلوجةً   كرَّكَ لامين على نابلٍ[2]

فقلت له: لقد تعبت وأتعبت فرسك! فلو نزلت فثنى رجله فنزل، فشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة، وألقى رمحه. وأقبل حتى جلس، وجعل يحدثنى حديثاً ذكرت به قول أبى ذؤيب:

وإن حديثاً منك لو تبذلينه   جنى النحل فى ألبان عوز مطافل[3]

ثم رفع الغلام عقيرته يتغنى.. ثم قال: ماهذا الذى تعلقته؟

قلت: شراب أهداه لى بعض أهلك، هل لك فيه؟

قال: أنت وذاك. فأتيته به فشرب، وجعلت أنظر إلى عينيه كأنهما مهاة قد أضلت ولداً وذعرها قانص، فرأى نظرى، فرفع عقيرته يتغنى:

إن العيون التى فى طرفها حَوَرٌ   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعنَّ ذا اللب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق الله إنسانا

فقلت له: من أين لك هذا الشعر؟

فقال: وقع رجل منا نحو اليمامة، فهو الذى أنشدنيه.

---

(١) الحمار الوحشى.   (٢) النابل: رامى النبال.   (٣) الحديثان النتاج.

ثم قمت لأصلح شيئاً من أمر فرسى، فرجعت وقد حسر الغلام العمامة عن رأسه فإذا هو أحسن الناس وجهاً. فقلت: سبحانك اللهم.. ما أعظم قدرتك وأحسن صنعتك!

قال: وكيف قلت ذلك؟

قلت: ما راعنى من نور وجهك وبهرنى من جمالك.

قال: وما الذى يروِّعك من حبيس التراب وأكيل الدواب، ثم لا يدرى أينعم بعد ذلك أم يبتئس؟

قلت: بل لا يصنع الله بك إلا خيراً إن شاء الله.

ثم قام الغلام إلى فرسه، فلما أقبل برقت لى بارقة من الدرع، فإذا ثدى كأنه حق. فقلت: نشدتك الله.. أنت رجلٌ أو امرأة؟

فقال: إنى والله امرأة تكره العُهر، وتحب الغزل.

قلت: وأنا والله لكذلك. فجلست تحدثنى ما أفقد من أُنسها شيئاً حتى مالت على الدوحة. فاستحسنت والله الغدر ياابن ربيعة وزين فى عينى ولكن الله عصمنى فجلست منها بعيداً. فما لبثت أن انتبهت مذعورة، فلاثت عمامتها، وأخذت رمحها، وجالت فى متن فرسها، وقالت: جزاك الله عن الصحبة خيراً.

قلت: ألا تزودينى منك زاداً؟ فناولتنى يدها فقبلتها، فشممت منها والله المسك المفتوت ثم قلت: أين الموعد؟

قالت: إن لى إخوة شُرساً وأبا غيوراً. ولأن أسُرك أحب إلى من أن أضرك ثم مضت. فكان والله آخر العهد منها إلى يومى هذا. فهى والله التى بلغتنى هذا المبلغ.. وبكى.

فقال ابن أبى ربيعة: فدخلتنى له رقة، وقلت له: لو لم أبلغ حاجتك بمالى لسعيت فى ذلك حتى أقدر عليه.

فلما انقضى موسم الحج شددت على ناقتى، وشد على ناقته، وحملت غلاماً على بعير، وجعلت عليه قبة حمراء كانت لأبى، وأخذت معى ألف دينار،

ورداء خز. ثم خرجنا حتى أتينا بلاد كلب فإذا الشيخ أبو الجارية فى نادى قومه، وإذا هو سيد الحى، وإذا الناس حوله، فوقفت على القوم وسلمت، فردَّ الشيخ السلام، ثم قال: من الرجل؟

قلت: عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المغيرة المخزومى.

قال الشيخ: المعروف غير المنكر، فما الذى جاء بك؟

قلت: جئتُ خاطباً. قال: الكُفء والرغبة.

قلت: إنى لم آت ذلك لنفسى عن غير زهادة فيك، ولا جهالة بشرفك، ولكنى أتيت فى حاجة ابن أختكم هذا العذرى، وها هو ذاك.

فقال: إنه والله الكفء الحسب رفيع المنصب، غير أن بناتى لا يقعن إلا فى هذا الحى من قريش. فعرف الجذع فى وجهى. فقال: أما إنى لصانع بك ما لم أصنع بغيرك.. أخيّرها.. فهى وما اختارت.

فقلت: والله ما أنصفتنى، إذ تختار لغيرى، ووليت الخيار لى غيرك.

فأوما إلىّ صاحبى أن دعه يخيرها. فأرسل لها بالخيار، وقال: رأيك!

فقالت: ماكنت لأستبد برأى دون رأى القرشى وما اختار.

قال الشيخ: فقد صيَّرتْ إليك الأمر.

قال ابن أبى ربيعة: فحمدت الله جل ذكره، وصليت على محمد ﷺ، وقلت: قد زوجتها الجعد بن مهجع وأصدقتها هذه الألف دينار، وجعلت تكرمتها العبد والبعير والقبة وكسوت الشيخ رداء الخز. وسألته أن يبنى من ليلته، فأرسل الشيخ إلى أمها. فأبت. وقالت: أتخرج ابنتى كما تخرج الأمة؟!

فقال الشيخ: فعجلى فى جهازها.

فما برحتُ حتى ضُربت الخيمة(القبة)فى وسط الحريم،وأُهديت إليه ليلاً. وبتّ أنا عند الشيخ. فلما أصبحت أتيت القبة فصحت بصاحبى، فخرج إلىّ وقد بدا السرور فى وجهه. فسألته: كيف كنت بعدى؟ وكيف هى بعدك؟

فقال لى: لقد والله أبدت لى كثيراً مما كانت تخفيه عنى يوم لقيتها تحت

الدوحة.

فقلت له: أقم على أهلك بارك الله لك فيهم ثم انطلقت وأنا أقول:

كفيتُ أخى العذرى ما كان نابه وإنى لأعباء النوائب حمّالُ

***

إنه القبيح بالمسلمة كثرة التعرض للفتن

حدث عبد الواحد بن زياد عن أبيه قال:

سمعت شيخاً من أهل العلم يقول: كان عندنا فتى متعبد حسن السيرة فأحبته جارية من قومه، وكانت تكاتم أمرها مخافة العيب، فمكثت بذلك حيناً، فلما بلغ بها الحب مبلغاً كبيراً أرسلت إليه بكتاب وضمنته هذه الأبيات:

تطاول كتماني الهوى فأبادني فأصبحت أشكو ماألاقى من الوجد

فها أنا ذا حرًى من الوجد صبةٌ كثيرة دمع العين يجرى على خدى

وأرسلته مع امرأة لتسلمه إليه، فقال: ماهذا؟

قالت: كتاب أرسلنى به إليك إنسان.

قال الفتى: سميه.

قالت: إذا قرأته سميت لك صاحبه.

فرده إليها وأنكره إنكاراً شديداً، فقالت له: ما يمنعك من قراءته؟

قال: هذا كتاب قد أنكره قلبى.

فلم تزل به حتى قرأه، ثم رفع رأسه إليها فقال: هذا الذى كنت أحذر وأخاف ثم دفعه إليها. فقالت المرأة: أما له جواب؟

قال: بلى. قالت: وماهو؟

قال: تقولين لها: ﴿إنه يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾.

قالت: لا غير.

قال: فى هذا كفاية.

فرجعت المرأة إلى الجارية وأخبرتها بما جرى بينهما فكتبت إليه:

يافارغ القلب من همى ومن فكرى	ماذا الجفاء فدتك النفس ياوطرى
إن كنت معتصماً بالله تخدمه	فإن تحليلنا فى محكم السور

فلما وصل إليه الكتاب قال: ماهذا؟

قالت: اقرأه.

فأبى، فلم تزل تلطف به، حتى فتحه فقرأه، ثم رده إليها.

فقالت: أما له جواب؟

قال: قولى لها: **﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار﴾** فرجعت إليها، وأخذتها بما جرى بينهما، فكتبت إليه :

فرج عن القلب بعض الهم والكُرب	وجد بوصلك والهجران فاجتنب
إنا سألناك أمــــــــراً ما نريد به	إلا الصـــلاح وأن نلقاك عن قرب

فذهبت المرأة بالكتاب إليه، فأخذه منها وقال لها: اجلسى ففتحه وقرأه عن آخره وكتب إليها يعظها، ويبين لها حاله وفكره فقال:

إنى جعلتُ همـــومى ثم أنفاسى	فى الصدر منى ولم يظهره قرطاس
ولم أكن شــــاكياً مابى إلى أحدٍ	إنى إذاً لقليــــل العلم بالناس
فاستعصـمى بالله مما قد بليت به	واستشعرى الصبر عما قلت بالياس
إنى عن الحــب فى شغل يؤرقنى	تذكار ظلمــــة قبر فيه أرماس

فلما قرأت الجارية الكتاب، أمسكت، وقالت: إنه لقبيح بالحرة المسلمة العارفة مواضع الفتنة كثرة التعرض للفتن. ولم تعاوده.

****

أحبك لأنك أهل لذاك

عن ذى النون المصرى قال: بينما أنا أسير على جانب البحر فى الليل، إذا أنا بجارية عليها أطمار بالية، وهى ناحلة ذابلة، فدنوت منها لسماع ماتقول، وإذا هى متصلة الأحزان بالأشجان، وقد عصفت الرياح واضطربت الأمواج، وظهرت الحيتان، فصرخت وسقطت إلى الأرض، فأفاقت وهى تقول:

« سيدى. . لك تقرب المتقربون فى الخلوات، ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات. . أنت الذى سجد لك سواد الليل، وضوء النهار، والفلك الدوار، والبحر الزّخار والقمر النوار، والنجم الزهار، وكل شىء عندك بمقدار لأنك أنت العلى القهار وأنشدت.

أحبك حبين حب الوداد	وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذى هو حب الهوى	فحبٌ شغلت به عمن سواك
وأما الذى أنت أهل له	فكشفك للحجب حتى أراك
فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

ثم شهقت شهقة فارقت بعدها الدنيا.

فوقفت متعجباً، وإذا بنسوة على أحسن مايكنَّ من الحالات قد أقبلن، وحملنها ثم غبن، وأقبلن بعد أن جُهزِّت، فقدمننى للصلاة وهن ورائى، فلما فرغت من الصلاة، مضين بها.

****

هيًا إلى الحور العين

روى أن جماعة من المسلمين كانوا مرابطين فى حصن، فخرج رجلان إلى الجيش فقال أحدهما لصاحبه: هل لك أن تغتسل لعل الله أن يعرضنا للشهادة فقال صاحبه: ما أريد أن أغتسل.

فاغتسل الأول، فلما فرغ سقط حجر من الحصن فأصاب الرجل.

قال راوى القصة: فمررت بهم وهم يجرونه إلى خيامهم فسألتهم ماشأنه؟

فأخبروني الخبر. فانصرفت إلى أصحابى ثم رجعت إليهم فأقمت عندهم وهم يشكون هل مات أو عادت إليه الروح؟

فبينا هو كذلك إذ ضحك فقلنا إنه حى، ثم مكث ملياً ثم ضحك ثم مكث ملياً ثم بكى، ففتح عينيه.

فقلنا: أبشر يافلان فلا بأس عليك، لقد رأينا منك عجباً كنا نظن أنك قد متَّ إذ ضحكت ثم مكثت مليا.

قال: أنما لما أصابنى ما أصابنى أتانى رجل فأخذ بيدى فمضى بى إلى قصر من ياقوته، فوقف بى على الباب فخرج إلىّ غلمان متشمرين لم أر مثلهم فقالوا: مرحباً بسيدنا.

فقلت: من أنتم بارك الله فيكم؟

فقالوا: نحن خلقنا لك.

ثم مضى بى حتى أتى بى قصراً آخر وخرج إلىّ منه غلمان مشمرين هم أفضل من الأولين فقالوا: مرحبا وأهلاً بسيدنا.

فقلت: من أنتم بارك الله فيكم؟

فقالوا: نحن خلقنا لك.

ثم مضى بى إلى بيت لا أدرى من ياقوت أو زبرجد أو لؤلؤ، فخرج إلىّ غلمان مشمرين سوى الأولين، فقالوا مثل ما قال الأولون، وقلت لهم مثل ذلك فوقف بى على باب البيت، فإذا بيت مبسوط فيه فرش موضوعة بعضها فوق بعض، ونمارق مبسوطة، فأدخلنى البيت وفيه بابان فألقيت نفسى بين الوسادتين. فقال: أقسمت عليك إلا ألقيت نفسك فوق هذه الفرش، فإنك قد نصبت فى يومك هذا؛ فاضطجعت على تلك الفرش على وطاء لم أضع جنبى على مثله قط.

فبينا أنا كذلك إذ سمعت حساً من أحد البابين، فإذا أنا بامرأة لم أر مثل جمالها، وعليها حلى وثياب لم أر مثلها. وأقبلت حتى وقفت علىّ ولم تتخط تلك النمارق، ولكن أقبلت بين السماطين حتى وقفت وسلمت فرددت عليها

السلام. فقلت: من أنت بارك الله فيك؟

فقالت: أنا زوجك من الحور العين.

فضحكت فرحاً بها. فأقامت تحدثنى وتذكرنى أمر نساء أهل الدنيا كأن ذلك معها فى كتاب. فبينا أنا كذلك إذ سمعت حساً من الشق الآخر فإذا أنا بامرأة لم أر مثلها ولا مثل حليها وجمالها. فأقبلت حتى وقفت كنحو ماصنعت صاحبتها. ثم مكثت تحدثنى فأهويت بيدى إلى أحديهما .

فقالت: تأنّ لم يأنْ لك. . إن ذلك مع صلاة الظهر.

فما أدرى أقالت ذلك أم رمى بى إلى صحراء؟ فلم أر منهم أحداً، فبكيت عند ذلك.

فقال الراوى: فما صليت الظهر أو عند الظهر حتى قبضه الله عز وجل.

****

الفليسوف وزوجة ملك الهند

قالت زوجة ملك الهند«دبشليم» وهى تتكلف الشِدَّة والجدَّ فى الحديث:

ـ أراك أيها الملك مازلت تُؤثِرُ مجالسة البلهاء ـ تقصد الفيلسوف«بيدبا»[1] الذى أمامها!

فقال بيدبا ـ وقد عادت إليه رباطة جأشه:

« إن البلهاء يامولاتى ثلاثة: من يأتمن اللص على المال، ومن يولّى الجاهل شؤون العلم، ومن يقلد الخائنين حكومة الأمة التى خانوها» .

قالت الملكة: « أراك مازلت مولعاً بالفارغ من الكلام» .

قال الفيلسوف: « إن الفارغ ياسيدتى ثلاثة:

عقل المعتوه، ودعاء البخيل، وفؤاد أم موسى» .

قالت الملكة: « برغم طول لسانك لن يكون لك فى هذه الدار مستقر ولا مقام» .

---

(١) الفيلسوف الهندى« بيدبا»هو صاحب كتاب«كليلة ودمنة»، والذى نقله إلى العربية«ابن المقفع».

قال الفيلسوف: « ثلاثة يا سيدتى لا تستقر فى ثلاثة:

المال فى كف الكريم، والصبر فى قلب العاشق، والماء فى الغربال».

قالت الملكة: « هذه عبارة واهية وقد سبقك الأولون إلى خير منها».

قال بيدبا: « إن الواهى ياسيدتى ثلاثة:

حُجةُ الكاذب المخادع، ومنزلٌ ضعيف الدعائم، ووزارة لا تعتمد على ثقة الأمة».

قالت الملكة: « إننى على كل حال لن أرضي عن إقامتك هنا..».

قال بيدبا: « ثلاثة لا ترضى أن تقيم فى ثلاثة:

الكرم فى نفس اللئيم، والهمة فى صدر الجبان، والشجرة اليانعة فى وسط الصحراء».

قالت الملكة: « يالك من رجل غريب».

قال بيدبا: « ثلاثة يامولاتى هم أغرب من دبَّ على وجه الأرض:

رجل يلتمس النصيحة ثم يعمل بضدها، ورجل ينكر الشمس وهو يراها طالعة، وأمة تعبد الصنم وقد صنعته بأيديها».

وخشى « دبشليم» ملك الهند أن تفرغ جعبة الفيلسوف قبل أن تنفد كلمات الملكة فقال:

«ثق يابيدبا أننى لن أكون لأمتى صنماً معبوداً، بل خادماً أميناً»!!

وأنت أيتها الملكة الكريمة، لقد استقر الرأى بينى وبين فيلسوفى العزيز على أن أودعه ويودعنى، وأن يفارق هذا القصر ـ كما أرادت الملكة ـ فلا أراه ولا يرانى، لكنه يرجو ـ وأنا أشاركه الرجاء ـ أن تتفضل الملكة فتقبل منه هذه الهدية الصغيرة التى يريد الحكيم أن تذكريه بها حين تنأى بنا الديار ويشط بنا المزار، ثم كشف الغطاء عن عقد.

فنظرت الملكة إلى الفيلسوف نظرة بدا فيها الرضى والعطف، وصفقت بيدها فجاءت الخادم المخلصة، فقالت لها:

ـ احملى هذا الصندوق ـ الذى بداخله العقد ـ إلى غرفة زينتى، ثم قالت: وأنت أيها الفيلسوف لقد قبلت هديتك، وحَسُنَ رأيى فيك، وليس عليك بأن تزور الملك متى شئت، وستظل أبواب هذا القصر مفتوحةً لك أبداً ثم انطلقت من الغرفة.

ونظر الملك دبشليم» وفيلسوفه «بيدبا» كل منهما إلى صاحبه نظرة ذات معنى، وكانت نفس كل واحد تحدثه ـ كانت بلا شك تقول له:

« هكذا المرأة!! هكذا كانت منذ الأزل، وهكذا ستبقى إلى الأبد فالطريق الموصل إلى رضاها محفوف دائماً بالفساتين والحلى»!!

****

عمر والجارية الحسناء

كانت لفاطمة زوجة عمر بن عبد العزيز جارية حسناء، ذات جمال فائق، وكان عمر معجباً بها قبل أن تفضى إليه الخلافة، فطلبها منها فأبت زوجته دفعها إليه وغارت من ذلك، فلم تزل فى نفس عمر.

فلما استخلف، أمرت فاطمة بالجارية، فأصلحت ثم حليت فكانت رائعة فى حسنها وجمالها، ثم دخلت فاطمة بالجارية على عمر فقالت: يا أمير المؤمنين! إنك كنت معجباً بفلانة جاريتى وسألتنيها فأبيت ذلك عليك، وإن نفسى طابت لك بها اليوم. فدونها.

فلما قالت ذلك استبانت الفرح فى وجهه، ثم قال:

ابعثى بها إلىّ ففعلت.

فلما دخلت عليه نظر إليها، فازداد بها عجباً، فقال لها: ألقى ثوبك، فلما همَّت أن تفعل قال: على رسلك ـ أى رويداً رويداً ـ. اقعدى أخبرينى لمن كنت؟ ومن أين أنت لفاطمة؟

قالت الجارية: كان الحجاج بن يوسف قد أغرم عاملاً كان له من أهل الكوفة مالاً، وكنت فى رقيق ذلك العامل، فبعث بى مع رقيق له وأموال إلى عبد الملك

ابن مروان ـ وأنا يومئذ صبية.

فوهبنى عبد الملك لابنته فاطمة.

قال: ومافعل ذلك العامل؟

قالت: هلك.

قال: وما ترك ولداً؟

قالت: نعم.

قال: شدى عليك ثيابك.

ثم كتب إلى عبد الحميد عامله أن سرِّح إلىّ فلان بن فلان على البريد. فلما قدم قال له: ارفع إلىّ جميع ما أغرم الحجاج أباك. فلم يرفع إليه شيئاً إلا دفعه إليه. ثم أمر بالجارية فدفعت إليه.

فلما أخذ بيدها قال: إياك وإياها، فإنك حديث السن، ولعل أباك أن يكون قد وطئها.

فقال الفتى: يا أمير المؤمنين! هى لك.

قال عمر: لاحاجة لى فيها.

قال: فابتعها منى.

فقال عمر: لست إذن ممن ينهى النفس عن الهوى.

فمضى بها الفتى، فقالت الجارية: فأين موجدتك بى يا أمير المؤمنين؟

فقال: إنها لعلى حالها، وقد ازدادت.

فلم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات رحمه الله ورضى الله عنه.

****

الفاروق وعرض المرأة المسلمة

روى سعيد بن منصور أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يوماً يتغدى إذ جاءه رجل يعدو وفى يده سيف ملطخ بالدم ، ووراءه قوم يعدون خلفه، فجاء حتى جلس مع عمر، فجاء الآخرون فقالوا: يا أمير المؤمنين إن هذا الرجل قتل صاحبنا.

فقال له عمر: مايقولون ؟.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إنى ضربت فخذى امرأتى فإن كان بينهما أحدٌ فقد قتلته ـ يعنى أنه قاتل دفاعاً عن عِرضه.

فقال عمر: مايقول؟

قالوا: يا أمير المؤمنين إنه ضرب بالسيف فوقع فى وسط الرجل وبين فخذى المرأة.

فأخذ عمر سيفه فهزّهُ، ثم دفعه إلى الرجل وقال:

إن عادوا فعد، وأهدر دم القتيل.

****

جاءت تشكو زوجها

حكى ابن قدامة عن الشعبى أن« سوَّار» كان جالساً عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجاءته امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين، مارأيت رجلاً قط أفضل من زوجى، والله إنه ليبيت ليله قائما، ويظل نهاره صائما فى اليوم الحار لا يفطر.

فاستغفر لها عمر وأثنى عليها، وقال: مثلك أثنى بالخير.

فاستحيت المرأة فقامت راجعة.

فقال« كعب بن سوَّار»: يا أمير المؤمنين، هلا أعديت المرأة على زوجها؟

قال عمر: وما شكت؟

قال سوار: شكت زوجها أشد الشكاية.

قال عمر: أو ذاك رأيت؟

قال: نعم.

قال عمر: ردوا على المرأة.

فلما جاءت سألها عمر: لا بأس بالحق أن تقوليه، إن هذا زعم أنك تشكين زوجك أنه يجنب فراشك.

قالت: أجل، إنى امرأة شابة، وإنى لأبتغى ما يبتغى النساء. فأرسل عمر إلى زوجها فجاء فقال عمر لكعب: اقض بينهما.

فقال كعب: أمير المؤمنين أحق: ـ يقضى بينهما.

قال عمر: عزمت عليك لتقضينَّ بينهما، فإنك فهمت من أمرهما ما لم أفهم.

قال كعب: إنى أرى كأن عليها ثلاثة نسوة هى رابعتهن، فأقضى بثلاثة أيام بلياليهن يتعبد الرجل فيهن، ولها يوم وليلة.

فقال عمر وقد تهلل وجهه: ما رأيك الأول أعجب إلىَّ من رأيك الآخر اذهب فأنت قاض على البصرة.

***

عجباً للكلب .. كيف يصون حرمتى؟!

كان للحارث بن صعصعة ندماء لايفارقهم، وكان شديد المحبة لهم، فخرج يوماً فى بعض متنزهاته ومعه ندماؤه، فتخلف منهم واحد، فدخل على زوج الحارث، فأكلا وشربا ثم اضطجعا.

فوثب الكلب عليهما فقتلهما. فلما رجع الحارث إلى منزله، ووجدهما قتيلين، عرف الأمر، فأنشأ يقول.

ومازال يرعى ذمتى ويحــــوطنى ... ويحفظ عرسى والخليل يخــــو

فيا عجباً للخلِّ يهتك حرمتــــى ... ويا عجباً للكلب كيف يصــــون

ظبي ورجل وفتاة (الثلاثي القتيل)

قال ياقوت في معجم الأدباء، حدث موسى بن هارون قال:

كنت بحضرة الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر، فاستأذن عليه الزبير بن بكار، فلما دخلَ عليه أكرمه وعظَّمه، وقال له: إن باعدت بيننا الأنساب فقد قربت بيننا الآداب، وإن أمير المؤمنين أمرني أن أدعوك وأقلدك القضاء.

فقال له الزبير بن بكار: أبعد مابلغت هذه السن، ورويت بأن من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين، أتولى القضاء؟!

فقال له: فلتلحق بأمير المؤمنين بـ«سر من رأى»- بلدة -.

فقال له: أفعل.

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وعشر تخوت ثياب، وظهر يحمله، ويحمل ثقله إلى بلدة« سر من رأى».

فلما أراد الإنصراف قال له: إن رأيت يا أبا عبد الله أن تفيدنا شيئاً نرويه عنك ونذكرك به.

قال: نعم. . انصرفت من عمرة المحرم فبينما أنا بأثاية العرج - مكان بعد المدينة إذ أنا بجماعة مجتمعة، فأقبلت إليهم، وإذا برجل يقتنص الظباء، وقد وقع ظبي في حباله فذبحه فانتفض الظبي في يده، وضرب بقرنه صدره، فنشب القرن فيه فمات.

وإذا بفتاة كالمهاة، فلما رأت زوجها ميتًا شهقت ثم قالت:

أضحـــت فتاة بني نهــــد علانيـةً	وبعلها في أكفِّ القـــــوم محتملُ
وكنت راغبـــــــــة فيه أضن به	فحال من دون ضن الرغبـة الأجلُ

ثم شهقت فماتت.

فما رأيت أعجب من الثلاثة: الظبي مذبوح، والرجل جريح، والفتاة ميتة!

فلما خرج الزبير بن بكار، قال الأمير محمد بن عبد الله: أي شيء أفدنا من الشيخ؟

قالوا: الأمير أعلم.

قال: قوله: « أضحت فتاة بنى نهدٍ علانية» ـ تعنى ظاهرة.

وهذا حرف لم أسمعه فى كلام العرب قبل اليوم، أما أن الذى أخذناه من الفائدة فى قولها: «أضحت فتاة بنى نَهد علانية» أكثر عندى مما أعطيناه من الحباء والصلة!

****

الفاتنة والعابد..

يحكى أن ناسكًا كان يعيش فى صومعة على جبل يتاخم مدينة يسكن فيها شقيق له فاضل تقى، مهنته صنع أحذية النساء، وكان من عادة هذا الناسك زيارة أخيه بين الحين والحين.

وكان كلما زار أخاه يحضر له كمية من اللبن يكون قد حلبها من عنزة له يقتنيها بجوار صومعته فى الجبل.

وكان لصفاء سريرته وعفافه أن وهبه الله سبحانه وتعالى كرامة، وهى أنه إذا وضع اللبن فى كيس من القماش لا ينفذ اللبن السائل من القماش ويبقى سائلا فى الكيس.

وذات يوم كان يزور أخاه كعادته، فلم يجده فى مكانه، فجلس ينتظره وكان عندما يصل يعلق الكيس الممتلئ باللبن بمسمار فى الجدار، فعلقه وجلس يعد تسبيحاته على مسبحته، وبعد مدة من الزمن حضرت سيدة بارعة الجمال، لها حذاء فى الدكان ورجت الناسك أن يناولها الحذاء ويساعدها على وضعه فى قدميها.

وما كاد الناسك أن يتلمس ساقيها وهو يساعدها على لبس الحذاء حتى سمع صوتاً جعله ينظر إلى كيس اللبن، فوجد اللبن يتسرب منه ويتساقط على الأرض، فعلم عندئذ أن كرامته زالت، فارتعب وراح يبكى مولولاً.

وعندما حضر أخوه وعلم بما حدث قال. . آه. . أخى لابد أنك تدنست، ولم يشفع لك طول تعبدك ولا نسكك، وظنى أن الشيطان أغراك فطاوعته،

وراودتك نفسك عن أمر أفسد عليك سريرتك ولوث تقواك وطهرك، فوقعت فى الشَرَك فاستغفر ربك إنه كان تواباً.

فرد عليه الناسك والدموع ملءُ مآقيه: أنت أفضل منى لأنك ما رست الحياة وتدربت على مقاومة مغرياتها.

فرد عليه أخوه قائلا: إن الفضيلة سلوك، والخطيئة انحراف، وليست الفضيلة أن تتباعد عن ممارسة الحياة، بل الفضيلة أن يخوض الإنسان تجارب الحياة ويتمسك أثناء ذلك بأهداب التقوى».

****

جُرَيْج الراهب وأمه

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما تكلّم مولود من الناس فى المهد إلا عيسى بن مريم، وصاحب جُريج**»، قيل: يا نبى الله ما صاحب جريج؟ قال:

« إن جريجاً كان رجلاً راهباً فى صومعة له، وكان راعى بقر يأوى إلى أسفل صومعته، وكانت امرأةٌ من أهل القرية تختلف إلى الراعى - أى تتردد عليه - فأتت أمه يوماً فقالت: ياجريج وهو يصلى، فقال فى نفسه وهو يصلى: أمى وصلاتى. فرأى أن يؤثر صلاته، ثم صرخت به الثانية. فقال فى نفسه: أمى وصلاتى فرأى أن يؤثر صلاته، ثم صرخت به الثالثة. فقال: أمى وصلاتى فرأى أن يؤثر صلاته. فلما لم يجبها قالت: لا أماتك الله ياجريج حتى تنظر فى وجه المومسات ثم انصرفت.

فأتى الملك بتلك المرأة التى ولدت. فقال: ممن؟ قالت:

من جريج. قال: صاحب الصومعة؟ قالت: نعم.

قال: اهدموا صومعته واتونى به فضربوا صومعته بالفئوس حتى وقعت فجعلوا يده إلى عنقه بحبل، ثم انطلق به، فمرً به على المومسات فرآهن فتبسم، وهنً ينظرن إليه فى الناس.

فقال الملك: ماتزعم هذه؟

قال: ماتزعم؟

قال: تزعم أن ولدها منك.

قال جريج: أنت تزعمين؟

قالت: نعم.

قال: أين هذا الصغير؟

قالوا: هو ذا فى حجرها.

فأقبل عليه، فقال. من أبوك؟

قال الغلام: راعى البقر!

قال الملك: أنجعل صومعتك من ذهب؟

قال: لا.

قال: من فضة؟

قال: لا.

قال: فما تجعلها؟

قال: ردُّوها كما كانت.

قال: فما الذى تبسمت؟

قال: أمرٌ عرفته. أدركتنى دعوة أمى، ثم أخبرهم».

****

هذا بخدمتك لأبيك!

حُكى أن رجلاً كان له ثلاثة أولاد، فلما مرض مرض الموت قال أكبرهم لأخويه: لكما ميراثه، ولى خدمته.

فلما مات أبوه رأى فى منامه قائلاً يقول: « اذهب إلى موضع كذا تجد د

ديناراً فخذه فإن فيه البركة. فلم يفعل.

ثم رأى فى الليلة الثانية كذلك، وفى الثالثة مثلها.

فلما أصبح أخذه واشترى به سمكةً، فوجد فيها جوهرتين، فباعهما بستين ألف دينار. ثم رأى فى منامه قائلاً يقول: « هذا بخدمتك لأبيك».

****

الأعرابى وزوجتاه

كان لأعرابى امرأتان، فولدت إحداهما جارية، والأخرى غلاماً فرقَّصته أمه يوماً وقالت - معايرة - ضَّرتها:

الحمـــــــــــد لله العـــــالى   أنقذنى العــــام من الجـــوالى

من كل شـــــــوهاء كشنٍ بال   لا تدفـــــع الضيم عن العيال

فسمعتها ضرتها، فأقبلت ترقِّص ابنتها وتقول:

وما علىَّ أن تكون جــــــاريةْ   تغسل رأسى وتكـــــون الغالية

وترفع الساقط من خمــــــاريهْ   حتى إذا بلغت ثمانيــــــة

أزرتها بنفيســـــــة يمانيـــــة   أنكحــــــتها مروان أو معاوية

أصهار صدقٍ ومهور غالية

فسمعها مروان فتزوجها على مائة ألف مثقال، وقال: إن أمها جديرةٌ أن لايكُذَّب ظنها ولا يُخان عهدها. فقال معاوية: لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر، ولكن لا تُحرم الصلة، فبعث إليها بمائة ألف درهم.

****

أنا بالله ثم بالقاضى

أتت امرأة يوماً «شريك بن عبد الله» قاضى الكوفة، وهو فى مجلس الحكم فقالت: أنا بالله ثم بالقاضى!

قال: من ظلمك؟

قالت: الأمير موسى بن عيسى عم أمير المؤمنين. كان لى بستان على شاطىء الفرات فيه نخيل ورثته عن أبى، وقاسمت أخوتى، وبنيت بينى وبينهم حائطاً، وجعلت فيه رجلاً فارسياً يحفظ النخل ويقوم به. فاشتري الأمير موسى بن عيسى من جميع أخوتى، وساومنى ورغّبنى، فلم أبعه.

فلما كانت هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل فاقتلعوا الحائط - فأصبحت لا أعرف من نخلى شيئاً.

فقال القاضى: ياغلام احضر طينة، فأحضرها، فختمها ودخل على موسى وقال له: قد أعدى القاضى عليك وهذه ختمه.

فقال: ادع لى صاحب الشرطة. فدعا به فقال: امضِ إلى شريك القاضى وقل: ياسبحان الله! ما رأيت أعجب من أمرك، امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها علىّ.

قال صاحب الشرطة: إن رأى أمير المؤمنين أن يعفينى من ذلك.

فقال: امضِ.. ويلك!!

فخرج الرجل وقال لغلمانه: اذهبوا واحملوا إلى حبس القاضى بساطاً وفراشاً وماتدعو الحاجة إليه. ثم مضى إلى القاضى. فلما وقف بين يديه أدى الرسالة.

فقال القاضى لغلامه: خذ بيده وضعه فى الحبس.

فقال صاحب الشرطة: والله لقد علمت أنك تحبسنى، فأحضرت ما أحتاج إليه فى الحبس.

وبلغ موسى بن عيسى الخبر، فوجه الحاجب إليه، وقال له: رسولٌ أدى الرسالة أى شىء عليه؟!

فقال« شريك» القاضى: اذهبوا به إلى رفيقه فى الحبس. فحبس.

فلما صلى الأمير العصر بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشقى وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شريك، وقال لهم:

أبلغوه السلام وأعلموه أنه استخف بى، وأنى لست كالعامة، فمضوا إليه وهو جالسٌ فى مسجده بعد العصر، فأبلغوه الرسالة.

فلما انقضى كلامهم قال لهم: ما لى أراكم جئتمونى فى جمع الناس تكلمونى؟!

ـ من هنا من فتيان الحى؟ فأجابه جماعة من الفتيان، فقال: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من هؤلاء وليذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلا فتنة وجزاؤكم الحبس.

قالوا له: أجادّ أنت؟!

قال: حتى لا تعودوا لرسالة ظالم. فحبسهم.

فركب موسى بن عيسى فى الليلة، وذهب إلى السجن، وفتح الباب وأخرجهم كلهم.

فلما كان من الغد وجاء شريك للقضاء، جاءه السجان وأخبره بالأمر.

فدعا بالقمطر فختمه ووجه به إلى منزله، وقال لغلامه: الحق بثقلى إلى بغداد، والله ماطلبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذا تقلدناه لهم. ومضى نحو قنطرة الكوفة متوجهاً إلى بغداد.

وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى، فركب فى موكبه، فلحقه وجعل يناشده الله ويقول: «يا أبا عبد الله تثبَّت، انظر إخوانى، أتحبسهم؟ دع أعوانى».

قال شريك: نعم لأنهم مشوا لك فى أمرٍ لم يجز لهم المشى فيه، ولست ببارحٍ أو يُردَّوا جميعاً، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدى فاستعفيته مما قلدنى.

فأمر موسى بردهم جميعاً إلى الحبس. فقال لأعوانه: خذوا بلجام دابته بين يدى إلى مجلس الحكم، فمروا به بين يديه حتى أدخل المسجد وجلس فى مجلس القضاء. فجاءت المرأة المتظلمة.

فقال: هذا خصمك قد حضر.

فقال موسى ـ وهو مع المرأة بين يديه: قبل كل أمر، أنا قد حضرت، أولئك

يخرجون من الحبس.

فقال القاضى شريك: أما الآن فنعم. أخرجوهم من الحبس.

ثم قال: ماتقول فيما تدعيه هذه المرأة؟

قال: صدقتْ.

قال: ترد ما أخذت منها، وتبنى لها حائطها سريعاً كما كان.

قال الأمير: أفعل ذلك.

ثم قال شريك للمرأة: أبقى لكِ عليه دعوى؟

قالت: لا.. وبارك الله عليك وجزاك خيراً.

فقال: قومى، فقامت من مجلسه.

فلما فرغ قام، وأخذ بيد موسى بن عيسى والأمير. وأجلسه فى مجلسه وقال: السلام عليك أيها الأمير. ذاك الفعل حق الشرع، وهذا القول حق الأدب فقام الأمير وانصرف إلى مجلسه.

****

وراء كل عظيم امرأة (عاقلة)

قال «الحارث بن عوف»«لخارجة بن سنان»وهو ابن عمه: أترانى إن خُطبْتُ إلى أحدٍ ردنى؟.

قال: نعم. قال: ومن ذاك؟

قال: أوس بن حارثة الطائى.

فقال الحارث لغلامة أرحل لنا، ففعل الغلام، وركب «الحارث» و«خارجة» حتى أتيا «أوس بن حارثة» فى بلاده. فوجداه فى فناء منزله فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك.

قال: وبك.

قال الرجل: ما جاء بك يا«حار»؟ ـ اختصار لاسمه.

قال حارثة: جئتك خاطباً.

قال الرجل: لست هناك.

فانصرف ولم يكلمه.

ثم دخل أوس على امرأته مُغْضباً، وكانت من عبس. ودار بينهما الحديث التالى:

الزوجة: من الرجل الذى وقف معك فلم يُطِل، ولم تكلمه؟

أوس: ذلك سيد العرب الحارث بن عوف.

الزوجة: فما لك لم تستنزله؟ - أى تدعوه وتضيفه.

أوس: إنه استحمق!

قالت: وكيف؟

أوس: إنه جاءنى خاطباً.

الزوجة: أفتريد أن تزوج بناتك؟

قال: نعم.

الزوجة: فإذا لم تُزوِّج سيد العرب فمن؟

أوس: قد كان ذلك.

الزوجة: فتدارك ما كان منك.

أوس: بماذا؟

قالت: بأن تلحقه فترده.

أوس: كيف وقد فرط منى ما فرط إليه؟

الزوجة: تقول له: أنك لقيتنى وأنا مغضب، ولك عندى كل ما أحببت، فإنه سيفعل... فركب أوس فى أثرهما.

قال خارجة بن سنان: فوالله إنا لنسير إذ حانت منى التفاتة فرأيته، فأقبلت على الحارث - وما يكلمنى غماً - فقلت له: هذا أوس بن حارثة فى أثرنا.

قال: وما نصنع به: امض.

فلما رآنا الرجل لا نقف صاح: يا حار - أى يا حارثة - أربع علىّ ساعة.

فوقفنا له. فكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً. ودخل أوس إلى منزله.

فقال لزوجته: أدُعى لى فلانة - أكبر بناته، فأتته، وجرى بينهما الحديث الآتى:

الأب: يابنية، هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب قد جاء لى خاطباً، وقد أردت أن أزوجك إياه. فما تقولين؟

الإبنة: لا تفعل ذلك.

الأب: ولم؟

الإبنة: لأنى امرأة فى وجهى ردة، وفى خُلقى بعض العهدة، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى، فيكون على فى ذلك ما فيه.

الأب: قومى بارك الله فيك. ثم قال أوس لزوجته: أُدعى لى الثانية - ابنته الوسطى، فدعوها، فقال لها مثل ما قال لأختها، فأجابته بمثلها، فقالت: «إنى خرقاء ولست صناعاً بيدى - أى لا تجيد أعمال البيت، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى، فيكون علىّ فى ذلك ما تعلم، وليس بابن عم فيرعى حقى، ولا جارك فى بلدك فيستحى منك، فقال لها: قومى بارك الله فيك. ونادى: ادعى لى بُهية - يريد الصغرى -، فجاءت، فقال لها كما قال لهما. فقالت: أنت وذاك.

فقال لها: إنى عرضت ذلك على أختيك فأبتاه.

فقالت: ولم يذكر لها مقالتهما: لكنى والله الجميلة وجهاً، والصنَّاع يدا، الرقيقة خلقاً، الحسيبة أباً، فإن طلقنى فلا أخلفَ الله عليه بخير.

فقال لها: بارك الله عليك.

وخرج أوس إلى الحارث وقال له: قد زوجتك بهية بنت أوس، قال: قبلتُ فأمر أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها، ثم أمر ببيت فضرب له، وأنزله إياه، فلما أدخلت إليه لبث هنيهة ثم خرج إلى أوس فقال له: أفرغتَ من شأنك؟

قال: لا والله. قال: وكيف؟

قال الحارث: لما مددت يدى إليها قالت: مه! أعند أبى وأخوتى! هذا والله لا يكون فنصحه أبوها بالرحلة. وقال: فارتحلنا، وسرنا ما شاء الله، ثم قال له: تقدم فتقدمت، وعدل بها عن الطريق، فما لبث الحارث من وقته أن لحق بأوس الذى قال له: أَفَرْغتَ؟ قال: لا والله.

قال أوس: ولم ذاك؟

قال: قالت لى: تفعل بى كما يُفعل بالأمة الجليبة، أو السبية الأخيذة! لا والله حتى تنحر الجُزُرْ، وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل لمثلى.

فقال أوس (أبوها): والله إنى لأرى هيئةً وعقلاً، وإنى لأرجو أن تكون هى المرأة النجيبة إن شاء الله.

ورحلوا حتى بلادهم، وجاء الحارث بالإبل والغنم، ثم دخل عليها، فلما خرج قال له أبوها: أفرغت؟

قال: لا.

قال: ولم ذاك؟

قال الحارث: دخلت عليها أريدها فقلت لها: قد أحضرنا المال كما ترين. فقالت: والله لقد ذُكر لى من الشرف مالا أراه فيك. قلتُ: وكيف؟

قالت: أتفرغ للزواج والعرب تقتل بعضها بعضاً؟! - وذلك فى أيام حرب عبس وذبيان - قلت: فتقولين ماذا؟

قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك، فلن يفوتك.

فقال أوس (أبوها): إنى والله لأرى عقلاً وهمة، ولقد قالت قولاً.

وخرجوا حتى أتوا القوم، ومشوا فيما بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحتبسوا القتلى ثم يؤخذ الفضل ممن هو عليه. وحملوا عنهم الديات - وكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين. وانصرفوا بأجمل الذكر. ثم دخل على زوجته.

****

المجاعة والمرأة، والمستنصر بالله

ذكر العزيزى فى كتابه «إغاثة الأمة» أن الغلاء والبلاء حلّ بمصر أيام المستنصر ـ من خلفاء الفاطميين، وكان من سبب هذا الغلاء ضعف السلطنة واستيلاء الأمراء على الدولة، وقد انعدم القوت، واستولى الجوع على الناس حتى بيع رغيف الخبز بخمسة عشر ديناراً، وبيع الأردب من القمح بثمانين ديناراً وأكلت الناس الكلاب والقطط، ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما كان فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره.

ومن أعاجيب هذه النكبة أن امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقداً لها قيمته ألف دينار وعرضته على جماعة يعطونها به دقيقاً، فاعتذروا إليها وراح كل واحد منهم يدفعها عن نفسه، ولكن واحداً منهم أدركته الرحمة بها فباعها بهذا العقد كيس دقيق، فلما أخذت المرأة الدقيق أعطت بعضه لمن يحميه من النَّهابَة فى الطريق، فلما وصلت إلى باب زويلة تسلمته من الحُماة له ومشت قليلاً، ولكن الناس تكاثروا عليه، وانتهبوه، فأخذت هى أيضاً مع النهابين ملء يديها من الدقيق لم يَنُبْها غيره، ثم عجنته وخبزته، فلما صار قرصة أخذتها معها وتوصلت إلى أحد أبواب القصر، ثم وقفت إلى مكان عال رافعة القرصة بحيث يراها الناس، ثم نادت بأعلى صوتها:

«يا أهل القاهرة. . ادعوا لمولانا المستنصر الذى أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقوَّمتُ على هذه القرصة بألف دينار!».

فلما وصل المستنصر ذلك الخبر امتعض له، فأحضر الوالى وتهدده وتوّعده مقسماً له بالله جلت قدرته أنه إن لم يظهر الخبز فى الأسواق وينحل السعر ليضربنَّ عنقه، ولينهبنَّ الناس ماله. فخرج الوالى من بين يديه وقد دبَّر حيلةً ذكية تبلغ بصاحبها ما يريد كان من بين المسجونين قوم استحقوا القتل لجنايات ارتكبوها من قبل، ولم يكن قد نفذ فيهم حكم الإعدام، فلما تهدد المستنصر الوالى على تلك الصورة الحازمة، جمع الوالى عقله إلى دينه، واستخرج حيلة، وهى أنه أخرج من الحبس أولئك الذين كانوا قد استحقوا الموت بجناياتهم، ثم أفاض عليهم ثياباً واسعة، وعمائم مدورةً. وطيالس سابلة تُوهم الناس أن هؤلاء من كبار التجار فى

مصر والقاهرة، ثم جمع تجار الغلة والخبازين والطحانين، وعقد لهم مجلساً عظيماً.
ثم أمر بإحضار واحد من أولئك الذين استحقوا القتل فدخل على المجلس فى هيئةٍ عظيمة، حتى إذا مثل بين يدى الوالى قال له:

ويلك، وما كفاك أنك خنت السلطان، واستوليت على مال الديوان حتى خرَّبت الأعمال ومَحَقْتَ الغلالَ فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعيَّة؟

يا غلام: اضرب عنقه، فضربت عنقه فى الحال، وتُرك ملقىً فى المجلس بين يدى الوالى ثم أمر بإحضار آخر من هؤلاء الجناة، وقال له مثل ما قال للأول، ثم أمر بضرب عنقه، فضربت وترك فى المجلس على حاله.

فقام إليه الحاضرون من التجار والطحانين والخبازين قائلين: «أيها الأمير فى بعض ما جرى كفاية ونحن نخرج بالغلة وندير الطواحين ونعمرّ الأسواق بالخبز ونُرَّخص الأسعار على الناس ونبيع الخبز رطلاً بدرهم.

ولكنه أبى عليهم ذلك حتى قبلوا أن يبيعوا الرطلين بدرهم، فرضى منهم بذلك بعد التوسل والضراعة إليه، ثم وفوا بما اشترط. وتدارك الله الخلق، وسكنت الفتنة، وانكشفت الشدة، وتلاحق الخير.

****

كسرى والعجوز والبقرة الحلوب

ذكر ابن الجوزى فى كتاب «مواعظ الملوك والسلاطين» أن كسرى خرج فى بعض الأيام للصيد، فانقطع عن أصحابه، وأظلته سحابة فأمطرت مطراً شديداً حال بينه وبين جنده، فمضى لا يدرى أين يذهب، فانتهى إلى كوخ فيه عجوزٌ. فنزل عندها، وأدخلت العجوزُ فَرَسَهُ، فأقبلت ابنتها ببقرة قد رعتها، فاحلبتها. فرأى كسرى لبناً كثيراً. فقال: ينبغى أن نجعل على كل بقرة خراجاً، فهذا حلوبٌ كثير.

ثم قامت البنت فى آخر الليل لتحلبها فوجدتها لا لبن فيها.

فنادت: يا أماه! قد أضمر الملك لرعيته سوءاً.

قالت أمها: وكيف ذلك؟

قالت: إن البقرة ما تبزُّ بقطرة من لبن.

فقالت أمها: اسكتى فإن عليك ليلاً.

فأضمر كسرى العدل والرجوع عن ذلك العزم. فلما كان آخر الليل قالت لها أمها: قومى احلبى. فقامت فوجدت البقرة حافلاً.

فقال: يا أماه! قد والله ذهب ما فى نفس الملك من السوء.

فلما ارتفع النهار جاء أصحاب كسرى، فركب وأمر بحمل العجوز وابنتها إليه. فأحسن إليهما وقال: كيف علمتما ذلك؟

فقالت العجوز: أنا بهذا المكان منذ كذا وكذا، ما عمل فينا، بعدلٍ إلا أخصبتْ أرضنا، واتسع عيشنا، وما عمل فينا بجْورٍ إلا ضاق عيشنا، وانقطَعت موارد النفع عنا.

****

كل امرىء ينزع إلى أصله

قال الهيثم بن عدىّ: خرجت فى سفرٍ على ناقةٍ، فأمسيت عند خيمة أعرابى، فنزلتُ فقالت ربة الخِباء: من أنت؟ فقلت: ضيف.

فقالت: وما يصنع الضيف عندنا؟.. إن الصحراء لواسعة. ثم قامت إلى بُرّ فطحنته وعجنته وخبزته ثم قعدت تأكل، فلم يلبث زوجها أن جاء ومعه لبنٌ، فسلمً، ثم قال: من الرجل؟ قلت: ضيف.

قال: أهلا وسهلاً.. حياك الله. ثم ملأ قعباً من لبنٍ وسقانى. ثم قال: ما أراك أكلت شيئاً. وما أراها أطعمتك؟ فقلت: لا والله. فدخل عليها مغضباً وقال: ويلك! أكلت وتركت الضيف!

قالت: وما أصنع به؟ أطعمه طعامى؟وزاد بينهما الكلام فضربها حتى شجها، ثم أخذ شفرةً وخرج إلى ناقتى فنحرها! فقلت: ما صنعت عافاك الله؟ فقال: والله لا يبيت ضيفى جائعاً، ثم جمع حطباً وأجّج ناراً، وأقبل يشوى ويطعمنى ويأكل ويلقى إليها، ويقول: كلى لا أطعمك الله. حتى إذا أصبح تركنى ومضى.

فقعدت مغموماً. فلما تعالى النهار أقبل ومعه بعيرٌ ما يسأم الناظر من النظر إليه.

وقال: هذا مكان ناقتك. ثم زودنى من ذلك اللحم ومما حضره. وخرجت من عنده. فضمنى الليل إلى خيمة أعرابى، فسلَّمتُ فردت صاحبة الخباء علىّ السلام. وقالت: من الرجل؟ قلت: ضيفُ.

فقالت: مرحباً بك، حياك الله وعافاك. فنزلتُ.

ثم عمدتْ إلى بُرٍّ فطحنته وعجنته وخبزته، ثم روَّت ذلك بالزبد واللبن، ووضعته بين يدى ومعه دجاجة مشوية، وقالت: كل واعذِر.

فلم ألبث إذ أقبل أعرابى كريه المنظر، فسلّم، فرددت عليه السلام. فقال: من الرجل؟

قلت: ضيف. قال: وما يصنع الضيف عندنا؟

ثم دخل إلى أهله فقال: أين طعامى؟ قالت: أطعمته للضيف.

فقال: أتطعمين طعامى للأضياف؟ ثم تكالما. فضربها فشجَّها. فجعلت أضحك فخرج إلىّ وقال: ما يضحكك؟ فأخبرته بقصة الرجل والمرأة اللذين نزلت عندهما قبله. فأقبل علىّ وقال: إن هذه المرأة التى عندى أخت ذلك الرجل، وتلك المرأة التى عنده أختى.

قال: فنمت ليلتى متعجباً، فلما أصبحت، انصرفت.

***

ولربك فانْحرَ - إنما الأعمال بالنيات!

حكى الأصبهانى أن «غالباً» أبا الفرزدق - الشاعر المشهور - كان رئيس قومه، وأن أهل الكوفة أصابتهم مجاعة فعقر غالبٌ لأهله ناقة، وصنع منها طعاماً وأهدى إلى قوم من بنى تميم جفاناً من ثريد، ووجه جفنةً منها إلى «سُحَيْم بن وثيل» رئيس قومه، وصاحب البيت المشهور الذى تمثل به الحجاج فى أول خطبة له بالكوفة وهو:

أنا ابنُ جلا وطلاَّعُ الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

فكفأها سُحَيْمُ وضرب من أتاه بها، وقال: أأنا مفتقرٌ إلى طعام غالب؟! إذا

نحر ناقة نحرت أنا أخرى، فوقعت المعاقرة بينهما فعقر سحيم لأهله ناقةً فلما كان من الغد عقر لهم غالبُ ناقتين؛ فعقر سحيم لأهله ناقتين. فلما كان اليوم الثالث عقر غالبٌ لأهله ثلاثاً؛ فعقر سحيم لأهله ثلاثاً. ولما كان اليوم الرابع عقر غالبُ مائة ناقة، فلم يكن عند سحيم هذا العدد فلم يعقر شيئاً وأسرّها فى نفسه.

فلما انقضت المجاعة ودخل الناس الكوفة، قال بنو رياح لسحيم: جررت علينا عار الدهر، هلا نحرت مثل ما نحر غالب وكنا نعطيك مكان كل ناقة ناقتين؟ فاعتذر بأن إبله كانت غائبة. ثم عقر ثلثمائة ناقة وقال للناس: شأنكم والأكل.

وكان ذلك فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه. فاستُفتىَ فى حِلّ الأكل منها. فقضى بحرمتها وقال:

«هذه ذبحت لغير مأكلة. ولم يكن المقصود منها إلا المفاخرة والمباهاة» فألقيت لحومها على كُناسة الكوفة، فأكلتها الكلاب والعِقبانُ.

****

السباعى واليابانية الحسناء

يقول يوسف السباعى فى كتابه«طائر بين المحيطين»: يابانية رقيقة حلوة البسمة لا تعترف بوجود الله، كان إلههم قبل الحرب هو الإمبراطور، فلما انتهت الحرب طار الامبراطور وطار معه الإله.

ونظرت إلى السيدة الذكية وسألتها فى دهشة: ألا تؤمنين بشىء فى هذه الحياة؟ قالت: أؤمن بنفسى!

قلت: إذا آمنتِ بنفسك فأنت تؤمنين بالله، لأن الله فى داخلك. وهزت اليابانية رأسها غير مقتنعة، فعُدتُ أسألها: إذا عجزتِ عن شىء ووجدت فى غيرك القدرة عليه، ألا تعترفين به وتؤمنين به؟

قالت: أجل.

قلت: ألا ترين فى حياتك ظواهر يعجز عنها الإنسان، وتقدر عليها قوة فوق قوته؟ وهزت رأسها فى شدة قائلة:

لا أظن العلم أبقى على شىء يعجز عنه الإنسان ويتوهم فيه قدرة فوق قدرته!! وصمتت برهة تفكر ثم استطردت:

ـ كنا فيما مضى نعبد الرعد، حتى اكتشفنا أنه تصادم كتلتين من الغاز، وكنا نظن الإله فى آخر الأرض حتى اكتشفنا إن الأرض كروية، وأنها بلا آخر. وأخيراً سألتها: ألم تبق أشياء يعجز عنها علم الإنسان؟

قالت: لا أظن!!

****

يوم الوشاح

ذكر البخارى فى صحيحه أن أعرابية كانت تخدم نساء النبى ﷺ، وكانت كثيراً ما تتمثل بهذا البيت من الشعر:

ويوم الوشاح من أعاجيب ربنا   على أنه من ظلمة الكفر نجّانى

فقالت لها عائشة رضى الله عنها: ما هذا البيت الذى أسمعه منك؟

فقالت: شهدت عروساً لنا، إذ دخلت مغتسلاً لنا وعليها وشاح فوضعته، فجاءت الحُديا ـ طائر ـ فأبصرت حمرته فأخذته، ففقدوا الوشاح، فاتهمونى به وفتشونى، فدعوت الله أن يبرئنى.

فجاءت الحديا بالوشاح حتى ألقته بينهم، فلو رأيتنى يا أم المؤمنين وهن حولى يقلن: اجعلينا فى حلٍ، فنظمت ذلك فى بيت.

فأنا أنشده لئلا أنسى النعمة فأتركَ شكرها.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيدع بدار الكتب المصرية ٤١٣٧ / ١٩٩٥م